Gaylord
PAMPHLET BINDER
Syracuse, N. Y.
Stockton, Calif.

THE LIBRARIES

COLUMBIA UNIVERSITY

دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر بسورية

زكي الأرسوزي

بعث الأمة العربية
و
رسالتها إلى العالم

الدولة والأمة

(٤)

دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر بسورية

زكي الأرسوزي

بعث الأمة العربية
و
رسالتها إلى العالم

الدولة والأمة

(٤)

893.713
Ar99
v.4
v.4

حقوق الترجمة والطبع والنشر والاقتباس
محفوظة
لدار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر
دمشق - سورية

21431M

المحتوى

صفحة

١ – الامة

٧٢ – مشاكلنا القومية

٩٦ – الاسرة

الامة

لكل مرحلة تاريخية طابعها ، وطابع هذه المرحلة : القومية . فمن الوجدان القومي يستوحي فيها الناس مثلهم العليا ، وبالاستناد الى المصالح العامة تسن فيها الشرائع وتنظم الحياة الاجتماعية الاقتصادية . حتى اذا ما وقعت الحرب بين دولة واخرى في هذه المرحلة التاريخية فانما تقع باسم الامة . واذا حصل انسجام بين منظومات دولية فمرد الانسجام الى توافق المصالح بين الامم .

اما كيف استحوذ هذا النمط من التفكير على العقول فطبع بطابعه شؤون الحياة العامة والخاصة فذلك ان الذهن اخذ يتحول عن ثنائية القرون الوسطى الى وحدانية رحمانية في الحضارة الحديثة ؛ اخذ يتحول عن ثنائية تحول فيها الباري عن الطبيعة حتى الافتراق الى وحدانية اصبحت فيها الكائنات ذات

بنيان رحماني مشترك . ظهر الاختلاف بين القرون الوسطى ذات النظام الرتيب وبين الحضارة الحديثة ذات النظام النسبي، نسبة الحوادث وتلازمها في وحدة الطبيعة على غرار الاختلاف بين بنية الاحياء وتركيب الآلة ، بين البذرة والجرة مثلا : تنطوي الاولى على مبدأ نموها وعلى النزعات التي تتعين بها حدود طبيعتها ، وتتلقى الثانية من صانعها الجرار الشكل والقوام .

بدأ الذهن يتحول عن القرون الوسطى في تفسير الحوادث حين بدأ الانقلاب في وجهة نظر الانسان في الدنيا ، حين اكتشف كوبرنيج المنظومة الشمسية على اعتبار الارض جرما بين الاجرام السماوية ، وحين اماط غاليلي اللثام عن اسطورة تقسيم لاجسام بين مادية وروحية . انه لتحول نجم عنه الاعتقاد بان الانسان مؤهل لمعرفة الحقيقة ، اذ ان مايبنيه العقل تحققه التجربة . ولما قال ديكارت عبارته المأثورة : « العقل (الذوق السليم) اعدل الامور توزيعاً بين البشر » كان يجمل بهذا القول وجهة نظر الحضارة الحديثة في الانسان .

ولكن اذا كانت النفس تنطوي على عقل يؤهلها لمعرفة الحقيقة وعلى وجدان يبين لها سبيل الفضيلة ، فمن حق كل انسان ان ينظم سلوكه حسب مشيئته وان يشترك ، كمواطن ، مع

اخوانه في تنظيم شؤون الدولة . وتحقيقاً لهذا الحق تنادى الناس الى الاستقلال والحرية ، تحقيقاً لهبت الشعوب في وجه الاستعمار والاستبداد مؤكدة ارادتها في الحياة .

نقدم فيما يلي جدولا بالاسس التي تقوم عليها كل من القرون الوسطى والحضارة الحديثة والتي تزيد بمقابلتها من وضوح التباين بين هاتين المرحلتين من تاريخ الانسانية : القرون الوسطى :

١ نظام الطبقات في المجتمع وفي الكائنات على رأسه البابا او الخليفة وفي قاعدته العامل والفلاح . اما في الكائنات فانه يقوم على الصورة المحسوسة باعتبار الارض وسطاً بين عالمين علوي وسفلي ، الاول يرتقي حتى العرش والثاني ينحدر الى الدرك الاسفل .

٢ صورة الدنيا تحمل طابع واضعها الانسان . انها مستوحاة من صبوة النفس المتفاوته بالمدي في الابداع الفني والاعمال الاخلاقية . وهي بذلك تتراوح بين التقليد والعبقرية البطولة .

٣ — السلطة تصدر عن السماء يتلقاها الرسول من الاله وهو ينقلها بدوره الى الخليفة او الى البابا . اي ان الاله يختار رسوله ويعهد اليه باداء الرسالة . ومن هنا اتى لقب الرسول (محمد المصطفى) . والرسول مسؤول عن المهمة الموكولة اليه امام

الله لا امام الجماعة .

٤ ـ القوانين آيات منزلة على صورة اوامر ونواهي . ولله وحده حق تعديلها او تبديلها . اما الرسول فتتلف صلاحيته عند تفسيرها ، وصلاحية الأئمة عند توسيعها بالقياس ، على مسؤليتهم الخاصة (الاجتهاد) .

٥ ـ ولقد شاعت خلال القرون الوسطى ، في اوروبا المسيحية ، فكرة الخطيئة ، خطيئة بني آدم المنتقلة اليهم بالوراثة من جدهم الاكبر بهبوطه من الجنة ، وما لازم هذا الهبوط من تقصير العقل عن معرفة الحقيقة بحيث اصبح الناس بحاجة الى نبي مخلص او من يقوم مقامه من مؤسسة كالكنيسة مثلا ومن هنا قام نظام الحياة في القرون الوسطى على مبدأ عدم المساواة من جهة ثانية .

الحضارة الحديثة فيقابل ذلك :

١ ـ نظام نسبي على اعتبار الارض جرماً بين الاجرام السماوية بحيث لم يبق للاتجاه المطلق من معنى ، اي لكلمتي : فوق وتحت . اذ انه بالنسبة الينا ، وان كان سكان المنطقة الجنوبية من الارض تحت اقدامنا ، فانهم بدورهم يرونا تحت اقدامهم . بينما كانت القرون الوسطى تعتبر هذا التقابل ومايتتج

عنه من ارتباط الناس عن طريق الاقدام بالارض ممتنعاً . ويتخذونه دليلا على بطلان كروية الارض . وقوام هذا النظام النسبي : المساواة ، بمعنى تساوي الناس في حق الاشتراك في تنظيم الدولة وفي الخضوع للقوانين العامة ، وتساوي الحوادث الطبيعية بالخضوع لمبدأ الضرورة .

٢ - تحولت الصورة الحسية في الحضارة الحديثة الى مفهوم مستوحى من نظام الطبيعة ومن مبدأ خضوع الحوادث لقوانين تمس الرياضيات بكيانها .

٣ - الجمهور هو مصدر السلطة وهو ينتخب رئيس الدولة فيوكل اليه المهام العامة ويجعله مسؤولا عن تصرفاته امام ممثلي الامة .

٤ - القوانين تمثل الارادة العامة وتتطور مع تطور الجماعة وهي مستخلصة من طبيعة الاشياء لا منزلة من السماء .

٥ - اكتشاف القوانين الطبيعية اعاد الى الانسان ثقته بنفسه وجعله يصبح حكما في مصيره ويشترك في مصير الانسانية مما سبب اقامة مفهومي المساواة والحرية كشعار للمجتمعات الحديثة .

هكذا تحولت الروابط بين الناس من مثالية الى طبيعية

ولما كانت الامة امتدادا للاسرة تقوم على روابط طبيعية بين ذوي القربى فقد اصبح مبدأ الاخوة اساساً في جمع شمل المواطنين على النضال في سبيل الاستقلال والحرية .

فالتفكير القومي ، اذا ، وان كان اصيلا في الطبع البشري وملازماً له ، الا انه لم ينطلق في اية مرحلة من التاريخ انطلاقه في المرحلة التاريخية الراهنة حتى لقد بدت ، في هذه المرحلة ، جميع مظاهر الحياة العامة كاللغة والتشريع والفنون والفلسفة الخ .. تجليات لحقيقة الامة .

ومع ذلك فقد اختلف اعلام الامم في فهم ماهية الامة ، كل منهم يستوحي وجهة نظره من البنية الخاصة بأمته . ففي فرنسا مثلا تقام الحياة السياسية الاجتماعية على مبدأ التمثل والتبني ، تمثل الدخيل وتبني الاغيار ، وذلك لان فرنسا محصلة عوامل تاريخية نشأت من روما التي حصل تكوينها من انصهار شعوب مختلفة في بوتقة ثقافية موحده . ونحن اذ نقول ان من عاشر القوم اربعين يوماً صار منهم نلخص مبدأ الجوار والمصلحة المبدأ الذي يقوم عليه كيان فرانسا ومن قبلها روما . فكأن الانسانية ، حسب وجهة النظر هذه ، تغرس في النفس غرساً ووسيلة الغرس هي التربية في حالتيها المقصودة وغير المقصودة .

وبينما كانت فرنسا تعتبر مفهوم الامة كحصلة لظروف طبيعية تاريخية وكان احد اعلامها ارنست رينان يفصح عن هذا الرأي بتعريفه الامة كذكريات وامان مشتركة ، كان الالمان يفهمون من « الامة » عبقرية تصدر عنها مظاهر الحياة العامة كمؤسسات اجتماعية وكمبدأ انسجام بين هذه المظاهر . وبحسب هذا الزعم تنشيء الحياة بنية الجسد والمؤسسات القومية بالغريزة . وليس الفرق بين ماقد يتجلى في الوجدان وبين مايتبض تحت الشعور الا فرقاً بدرجة الوضوح بين مراحل مختلفة لنفس الوثبة ويلتقي الذهن العربي هنا ايضا مع هذه النظرة في كلمة « جنس » الحاصل تكوينها من « جن بمعنى اختفى » مع الحاق حرف « س » الذي يعبر عن الحركة اي عما ينبعث من تحت الشعور . ولما كان الدم ينتقل من الاجداد الى الاحفاد دون انقطاع رغم مايظهر فيه الافراد من مظهر الانفصال والاستقلال فقد اتخذت وسيلة الانتقال هذه كقاعدة طبيعية لعبقرية الامة ومستودعاً لخصائصها بحيث تصبح العلاقة بين الدخيل والامة بمثابة العلاقة بين الطبوع والبهيمة التي يتطفل عليها فمهما طمست الفوارق الخارجية بين المتطفل والفريسة تبقى الدورة الدموية بينهما متعاكسة .

كذلك هو التباين في الرأي بين فرنسا وألمانيا على غرار التباين بين قطبي الحياة : النسبة والجوار ، الرحم والمصلحة .

امانظريات اعلام الامم الاخرى في ماهية الامة فليست غير تلونات لاحد الاتجاهين السابقين .

. . .

ونحن نستجلي هنا وجهة نظر العرب في ماهية الامة مستندين في محاولتنا هذه الى مظاهر حياتنا العامة فنبدأ اولا بايضاح كلمة امة وننتقل بعدئذ الى خبرات اجدادنا المتبلورة امثالا في تراثنا .

فكلمتا « امة » و « ام » ترجعان الى مصدر مشترك هو « أم » اي قصد ، والام في اسرة هذه الكلمات هي صورة الامة الحسية . فكما يصدر عن الام ابناؤها ويتجهون اليها كمنهل للحياة ، كذلك الامة في الحدس العربي هي مصدر الاخوة في المجتمع وهي غاية مايصبو اليه الاخوان من امنية ، مثلها كمثل الام ذاتها .

وهاك اتجاهات الحدس في كلمة « أم » : (الام الوالدة اصل الشيء) ، (الامام : من يقتدى به : الخط يمد على البناء ليبنى مستقيما) ما يمثل عليه المثال : الطريق الواضح) ، (الامة

الجماعة : الطريقة) . هذه المعاني ، لدى استقطابها متقاربة في الوجدان « ينجلي حدس العرب في هذا الشأن ، فان الامة ، بحسب هذا الحدس ، هي الوجدان القومي الذي تصدر عنه المثل العليا والذي تقدر بالنسبة اليه قيم الاشياء .

ولكن اذا نحا الذهن العربي هذا المنحى المثالي في فهم الامة فهل يتفق الحدس مع واقع الامر ، ايرجع الانسجام اذن بين مظاهر الحياة العامة الى حقيقة مثل رجوع الانسجام بين الانغام في الانشودة الى الالهام ؟ ام ان الانسجام بين المظاهر في الحياة والفن ليس الا جملة مصادفات سعيدة ثبتها المجتمع بالتربية ؟ وبتعبير آخر هل الامة مفهوم concept يبنيه الذهن تلخيصاً لعوامل تاريخية طبيعية ؟ ام هي اية idée اصولها في الملأ الأعلى وتجلياتها تندرج في الطبيعة كنظام بنية الافراد والمؤسسات العامة .

ان الخبرات المتوارثة لدينا تتفق مع الحدس المتضمن في كلماتنا اتفاقا يتضح به نهج التفكير العربي في فهم ماهية الامة . واليك بعضا من الاقوال المأثورة في هذا الصدد : « الولد سر ابيه » ، « كادت المرأة تلد أخاها » ، « خذوا البنات من صدور العمات » ، « اذا بار الولد فثلثاه للخال » الخ ... هذه الامثال

يشير كل منها الى ان الحياة تنشيء بالغريزة الاحفاد والاجداد تنشئهم على مثال مشترك سماتهم وأصول تفكيرهم معاً ، الاينزع الولد الى ابيه حتى ولو لم تقدر له رؤيته ؟ ! .

واذا تعارف العرب في الجاهلية على علم القيافة الذى يقوم على الاستدلال بهيئة الانسان على نسبه فقد هدتهم الملاحظة والتجربة الى رسوخ قواعد الوراثة حتى ان الاسلام نفسه أخذ بهذه الاحكام في الشرع . واليك ماورد في الصحيح من الحديث فيما يتعلق بهذا الامر ، ان مجزز الاسلمي دخل يوما الى الرسول فرأى أسامة بن زيد وزيدا وعليهما قطيفة قد غطيا رؤوسهما وبدت أقدامهما فنظر اليهما مجزز الاسلمي وقال : ان هذه الاقدام بعضها من بعض ... فسر بذلك النبي » وقد فسر الاصفهاني هذا النوع من المعارف بما يلي : « خص الله تعالى بذلك العرب ليكون سبباً لارتداع نسائهم عما يورث ثلب نسبهم وخبث حسبهم وفساد بذورهم وزروعهم صيانة للنسبة كان العرب اذا نظروا الى عدة اشخاص الحقوا الابن بأبيه والاخ بأخيه والقريب بقريبه وميزوا الاجنبي من بينهم . اما حكمة اهتمام العرب بالنسب فنجدها في جواب اياد عندماقيل له : « من اين عرفت ان الرجل يدعي لغير ابيه » فقال :

« لاني رأيته يتكلف ما يعمله » ونجدها أيضاً في اقوال مأثورة كهذه « يد الحر ميزان » « أنجز حر ما وعـــد » و « بالبر يستعبد الحر ».

ولقد فطن العرب للعلاقة بين ما يظهر من الحياة وما يضمر فيها من استعدادات فوضعوا علم الفراسة كسجل لخبراتهم في هذا الامر . وقد أيد القرآن حدس الجمهور بآيات كهذه : « ان في ذلك لآيات للمتوسمين ، تعرفهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول » حتى ان العلاقة بين ما نسميه اليوم بـ (تحت الشعور) و (الشعور) لم تخف على الذهن العربي وليست الزكانة الا المبحث المتعلق بصلة الضمير بالوجدان . ونقتبس هنا المثال الآتي من كتاب « مفتاح السعادة » لابن القيم حيث يقول : « حكي عن المهدي انه رأى رؤيا ونسيها فأصبح مغتما بها فدل على رجل كان يعرف الزجر والفأل والتعبير وكان حاذقا واسمه خويلد . فلما دخل عليه أخبره بالذي اراده فقال له : يا امير المؤمنين صاحب الزجر والفـأل الى الحركة فغضب المهدي وقال : سبحان الله أحدكم يذكر بعلم ولا يدري ما هو ومسح بيده رأسه ووجهه وضرب بها على فخذه ، فقال له : أخبرك برؤياك ياأمير المؤمنين ، قال هات قال : رأيت كأنك

صعدت جبلاً ، فقال المهدي : لله أبوك يا سحار ، صدقت ، قال ، ماأنا بسحار ياأمير المؤمنين غير انك مسحت بيدك على رأسك فزجرت لك بنزولك الى أرض ملساء فجاءعينان ماالحتان ثم انحدرت الى سطح الجبل فلقيت رجلا من فخذك ، قريش ، لأن أمير المؤمنين مسح بعد ذلك بيده على فخذه فعلمت أن الرجل الذي لقيته من قرابتك قال : صدقت .

وهاهنا نرجع بالذكرى الى سنة ١٩٣٤ ، فلما سرحت من وظيفتي كمدرس من قبل سلطة الانتداب لجأت الى القرية حيث كانت تقيم والدتي ؛ وكنت واياها نتبادل الحديث في الليالي الممطرة وكم كانت دهشتي لما رأيت تأملاتي تلتقي مع حدسها في أمهات المسائل ، فكانت دراستي المديدة ليست الا سبباً لاستجلاء الحدس المشترك بيننا ، الحدس المنطوية عليه نفساناً ، وكانت والدتي قد عبرت عن ذلك بقولها : سبحان الله يا ابني ، انك لم تتبدل منذ كنت أحملك على صدري وكل مافي الامر انك أنك كنت برعماً فتفتحت زهرة . ولذلك فاني أعتقد بأن الاختلاف بين فرد وفرد من أبناء الأمة انما هو اختلاف بدرجة الوضوح الأمور المتعلقة بالأصول . فما هو حدس مبهم عند الجمهور يتحول الى بصيرة نيرة عند القادة . وذلك مايحمل على الاعتقاد أيضاً

بأن مايتجسد من شبه بين الأفراد المحدرين من ذات الأصول، وبين مايظهر من انسجام في المؤسسات العامة يرجع الى آية الأمة المتحققة عبقرية في الطبيعة ، يرجع الى تجربة الاجداد المثلى في أصول الحياة وليس التاريخ الاسجل هذا التحقق كمصير يحصل من انتصارات الحياة على القدر الغاشم .

تظهر العبقرية العربية بوضوح في انسجام مؤسساتنا العامة وفي انسجام كلماتنا التي تقوم هذه المؤسسات على استجلاء حدسها. أليس من الغرابة بمكان أن تكون هذه الكلمات قد وضعت في عصور متفاوتة وأقاليم متباعدة وهي مع ذلك ذات انسجام بالمعنى ؛ انه ليخيل للمتأمل فيها أنها وجوه مختلفة لذات العبقرية واليك بعض ماورد في كتابنا « العبقرية العربية في لسانها » في هذا الصدد :

« تبدر الأمة البدائية في الكون حاملة سماءها بصورة مجملة فتتفتح عنها بتجارب تجلياتها بين قطبيها: قطب ترتسم به في بنية ابنائها معرفة متبلورة وفي الكون عالماً تنعكس عنه الطبيعة محددة امكانية ادراكهم ، وقطب آخر ترتقي اليه النفوس من خلال هذه التجليات المستشفة في تساميها بنور ذاتها .

وها نحن نورد بعض الامثلة المقتبسة من اللسان العربي أيضاً

ايضاحاً لما تقدم وتثبيتاً لبدائية الأمة التي أوجدته: فكلمة (نب) مثلاً المؤلفة من حرفي (نون) و (باء) تعبر بحسب مخرج كل من حرفيها عن الصميم (بالنون) وعن الظهور (بالباء) وبجملتها تفيد الانتقال من الداخل الى الخارج فالظهور التعالي. وعند التحليل تظهر جميع الكلمات المنتسبة الى اسرة هذا الجذر اتجاهاته الأساسية:

١ - لما كان الصوت أبرز مايخرج عن صميم الانسان فإن أكثر المصادر قد تضمنت مشتقات تشير اليه (نب التيس: صاح)؛ (نبأ: صات خفيفاً)؛ (النبأة والنبؤة: الصوت الخفي أو الهاتف؛ (فبخ: كان شديد الصوت جافي الكلام)؛ (نبح الكلب: صات)؛ (النبخة: النكتة)؛ (نبر المغني: رفع صوته بعد خفض)؛ (نبس بالمجلس: تكلم)؛ (نبض في المجلس: تكلم)؛ (نبض العرق: تحرك وضرب)؛ (أنبض القوس: جذبها ليصوت بها)؛ (أنبط الكلام: استخرجه)؛ (نبغ الرجل: قال الشعر وأجاده).

٢ - هنالك اتجاه آخر تظهره على الخصوص الصور الحسية والخيال الذي أنشيء منها وهو الصعود والتعالي: (نبأ الشيء: ارتفع)؛ (النبيء: المكان المرتفع)؛ (نبت: نشأ ونمى

من الأرض) ؛ (نبس فلان : غضب : ظهرت كوامنه) ؛ (النبخة : الأكمة) ؛ (نبخ العجين :اختمر وانتفخ) ؛(الارض النبخاء : المرتفعة) ؛ (المنبوذ : الولد الذي تلقيه أمه) ؛ (النبيذ : عصير العنب) ؛ (نبز الغلام : ترعرع) ؛ (نبز : الجرح : تورم ؛ (النبص : القليل من البقل اذا طلع) ؛ (نبق الشيء : خرج) ؛ (نبك المكان : ارتفع) ؛ (النبكة الأكمة) ؛ (النبأة :المرتفع المشرف) ؛ (النبيء من الارض: ماارتفع منها)؛ (النبوء : العلو والارتفاع) .

٣ – ولما كانت الصورة الصوتية البدائية بيانية ونشأتها انسانية فان الحدس يتفرع الى المعاني الاصلية الأتية : النبوة والنبي وصورته الحسية : الطريق الواضح والمكان المرتفع ؛ والنبوغ والنابغ وصورته الحسية : غبار الرحى (الدقيق)، والنبل والنبيل وصورته الحسية : النبال والسهام (الفروسية)؛ النباهة والنبية : اليقظة من النوم والشرف .

يبدو التوافق في الامثلة المتقدمة بين المعقول والمحسوس دقيقاً والانسجام في معانيها شاملا رغم أن هذه الكلمات قد أبدعت في عصور متفاوتة وفي أقاليم مختلفة فكأن هنالك عبقرية قد انطوت عليها نفوس أبناء هذه الامة كافة فعبر كل منهم عنها

من وجهة نظره الخاصة وهم منها يستمدون نسغهم واليها يصبون كمثل اعلى وبها تنسجم ثقافتهم : (بنيانهم الانساني) مع الميول التي تضمنتها نفوسهم .

ويؤخذ من هذه الامثلة أيضاً أن الحدس فيها تتقدم على الصورة الحسية والمفاهيم العامة التي تحاول التعبير عن اتجاهاتها الاساسية كتقدم الميل على الاشياء (حاجاته) التي تحققه فيحدد انتباه الفرد ويوجه اختياره فيكشف عن قرارة الحياة المرتسمه على الكون بآثاره . »

ولئن شيد أعلام أمتنا صرح مؤسساتنا العامة باستجلاء ماضمر في كلماتنا من معنى فقد جاء كياننا القومي متلازم الاعضاء في الجسد . ان الامة العربية عبقرية أبدعت أداة بيانها أبداعا أفصحت به عن حقيقتها فأصبحت بذلك كالقصيدة التي توحي انسجام الفاظها وجود الفنان الذي أبدعها . والحدس في الكلمة العربية من صرح الثقافة هو بمثابة البزرة من الشجرة والخيال يقوم في استجلاء الحدس مقام البيئة في انماء البذرة مما يحمل على الاعتقاد بأن هذه الأمة ليست كغيرها محصلة ظروف تاريخية اوجملة ذكريات وأماني بل انها معنى مبدع يبدع تجلياته ويوجهها حسب وجهته في الحياة . فهي ، من حيث الظهور على

مسرح الانسانية ، على غرار ظهور الأنواع الحياتية في الطبيعة .

. . .

مامن أحد ينكر ماللبيئة من تأثير على الأحياء ، من أنواعها الابتدائية الى الامم الزاهية في الحضارة . فأي منا لم يلحظ ماللاقليم من تأثير في تحول بذرة البطيخ من نوع (الجلب) الى النوع البلدي . وأي منا ألم بلغة أجنبية ولم يلحظ مالهذا الالمام من تأثير في تكوين عقليته تكويناً خاصاً . وكما يستعير الشاعر من البيئة الصور ليعبر بها عن أفكاره مجازا يتعين أيضاً مصير الامم الى حد ما بموقعها وطبيعة تربتها . أفلم يعين مصير كل من فينيقيا في التاريخ القديم ، وانكلترا في الحضارة الحديثة ، بموقعها الجغرافي ؟

لكن تأثير البيئة هذا يتبع تفسير الحياة لها وهو في اتجاه عبقريتها . فاذا زرع بذر البقدونس والبصل ، مثلاً ، في نفس الشروط الطبيعية فان كلا من النوعين ينمو حسب طبيعته الخاصة وكذلك هي حال الأمم ، فقد أقام في منطقة ازمير كل من اليونان في العهود القديمة والأتراك في العصور الحديثة ، وكان الشعب الأول قد شق من هذه البقعة في العالم طريق التفكير الحديث في الفلسفة والعلم ، أما الاتراك فلم تبدر عنهم حتى اليوم

ابة ظاهرة أصلية في المدنية او في الثقافة .

واستقلال الاحياء بالمصير عن بيئتها يكون متناسباً مع نمو عدانها ، اي مع نمو المدة بين انعقاد الحياة على الرشيم وبين الشيخوخة . فاذا كانت الانواع الابتدائية ذات العدان القصير الآمد ، لبرغش مثلا ، تخضع لاراجيف البيئة فان الانواع الراقية ذات العدان الطويل الامد ، كنوع الفرس ، تصمد في وجه التقلبات التي تحصل خلال مواسم السنة حتى اذا اضاف الانسان الى حالة الاستقلال عن ظروف البيئة امر ادارة الحوادث وتوجيهها فان الفضل بذلك يرجع الى عدانه البالغ بالمدى حتى الخمسين عاما .

« ان الحياة ، ككل منظومة ، ذات معنى وصورة : تمس بالصورة الضرورة Nécessité وتسمو بالمعنى الى الحرية . انما هي مبنى فاعدته في الارض واوجه في الملأ الاعلى . واذا مست الحياة الضرورة بمنظومة الخلايا التي يتألف منها الجسد فهي تستمد من هذا التماس قوتها الذي يقوم عليه عدانها حتى لكأنما العدان رفرف (érentail) تنشر عليه فحواها كما ينتشر الالهام على المنظومات الاهتزازية التي تنطوي عليها انغام الانشودة ؛ او لكأنما هي تكشف عن غنى فحواها بصورة متناسبة مع مدى

اتصالها هذا بالطبيعة - من رسالة الفن للمؤلف ».

والامم يكون استقلالها بالمصير عن الظروف تبعاً لنفس المبدأ . ولنأخذ كمثال : اليمن وبريطانيا : فالاولى تكتفي على نفسها وتسعى جهدها للاستغناء عن العالم حرصاً على سلامتها بينما تحاول الثانية ان تزيد دائماً من الروابط السياسية والاقتصادية بينها وبين جميع انحاء العالم . فايها تخضع الظروف لما ربها: ادولة اليمن ام بريطانيا ؟ ! وعبقرية ايها تنكشف حسب طبيعتها ، اعبقرية العرب في اليمن ام عبقرية الانكليز؟ !وتتحرر عبقرية الامة من ضرورات البيئة مع تقدم الثقافة بصورة خاصة اذان المعنى يعدل من وطأة العوامل الطبيعية على مجرى شؤون الحياة في انكشافها حتى اذا تعارضت الاسطورة في نشأة الانسان عند كل من الآريين والسامين اعتبر هؤلاء الانسان ابن السماء (الثقافة) واعتبره اولئك ابن الارض (المدنية) فان كلا من فرعي العرق الابيض هذين قد استوحى وجهة نظره في الوجود من كيانه الخاص . تتجه الشعوب الهندية - الاوروبية فتسترل في ملاءمتها الضرورات البيئة دائمة في استرسالها على اقامة العلاقات الاجتماعية السياسية على مبـــدأ الجوار بحيث تتحول هي الى مجتمعات ذات تنوع تباعاً لتنوع الاقاليم الطبيعة في حين تبقى

الشعوب العربية السامية متجهة نحو السماء متخطية بصبوتها حدود الحواجز بين الاوطان . واذ قال عمر بن الخطاب لاحد الاعراب «لاتقل انك من قرية الفلانية بل قل انك من العشيرة الفلانية» فقد افصح عن المنحى الثقافي الذي تنحوه العبقرية العربية .

كذلك هي الحياة ، فان تستمد من البيئة القدرة التي تتحقق بها والتي منها تنشىء بدنها كمجموعة اوائل تجعل بها الظروف طوع مشيئتها ، فانها ايضاً مصير ذو تطور على مراحل وفي اتجاه مستقل عن الحوادث الطبيعية في تلازمها تلازماً مستديرا وفي خضوعها لمبدأ الكم والمسافة . حتى انها ، اذا ماتجلت لذاتها ، بدت وحدانية دائبة المسعى للاستقلال بمصيرها عن قدر الحوادث الطبيعية وكذلك هي الامم فان ازدادت نقاط ارتباطها بالطبيعة ، مع تقدمها في الحضارة فان مصيرها يزداد بهـــذا التقدم تحررا .

وان تدل الحياة بانسجام مظاهرها وبتقدم انواعها على مسرح الطبيعة وبسيطرة الانسان على البيئة ، على انها ذات نزعة تدفع بها الاحياء الى الارتقاء نحو الافاق المتعالية ، فان الامم ايضاً تعبر عن وجهة نظرها في الوجود باصطفاء مآثر ابنائها كثرات. وهل القوانين والعرف والتقاليد الا صور مصطفاة بقصد التعبير عن

وجهة النظر هذه ؟ انها مؤسسات تعبر عن حقيقة الامة في علاقتها مع البيئة كما تعبر الاحياء عن حقيقة الحياه في علاقتها مع الطبيعة العلاقة التي تظهر في نظام اجهزة الكائن الحي وفي ماينجم عن هذا النظام من اختلاف في الانواع (يدا الانسان، حافر الفرس، مخلب الاسد ، برثن العصفور خف الجمل .. كلها تحولات لنفس المخطط ، تحولات قد نتجت عن وجهة نظر النوع في الدنيا وعما اقتضته وجهة النظر هذه من ملاءمة مع ظروف البيئة) . الا ان المؤسسات محاولات تقريبية في التعبير عن حقيقة الامة بها يتجلى قوامها الذي يرجع اليه الانسجام بين اعمال الاجيال في تشييد صرح مجتمع ذي مظاهر متلازمة متتامة .

وهل تقف المؤسسات العامة عند حد التعبير عن اختيار الامة . اولم تكشف ايضاً عن خطوط سماها المرتسمة في بنية ابنائها كسجايا حتى ان اصالة الامة لتقاس بمدى التجاوب بين الحدس المنطوية عليها نفوس ابنائها وبين المؤسسات التي شيدها اعلامها ، اصالة تشتد بها الحياة وتزكو .

يخيل للناس في اول وهلة ان العلاقة بين الاحياء والبيئة تقتصر على سد الحاجات وعلى اقتباس الصور بطريق الحواس . لكن الحقيقة هي ان العلاقة المذكورة ابعد مدى مما خيل لهم

انها تتناول نظام الجسد بأجمعه ، مايتعلق ببنيته الداخلية وما يتعلق بموقفه من العالم .

« افلم تظهر الانواع الحيوانية بالتدريج على مسرح الطبيعة مزودة بحواس بديئة وبميول جديدة ؟! او لم ترجع الحياة ، ببنيانها المتكامل هذا ، حدود الضرورة اي الم تقشع بالحواس ما كان مغلقاً وبالميول ما كان مستعصياً ؟ — رسالة الفن للمؤلف » .

ذلك ماحمل على الاعتقاد بأن الحياة معنى البيئه وهي منها بمثابة المصمم من المبنى . افليس لكل اقليم نوعه البشري كما له نوعه النباتي والحيواني ؟! او لاتدعو البيئة الحياة لدى كل تبدل طارىء الى اعادة النظر في نظام كيانها . واعادة النظر هذه تحتمل كل الدرجات من تحول يطرأ على كيان الفرد الى ظهور نوع حيواني بديء في الطبيعة . حتى لكأنما النوع استجابة الحياة لانقلاب في الكون ؛ او لكأنما هو مغزى الانقلاب من وجهة نظر معينة . واذا ماتبدل الدور ولم تستطع الحياة ايجاد منظومة من الرجاع (Reflexee) تتلاءم بها مع البيئة المستجدة اندثر النوع المتبلور فيه النزعات حتى الجمود .

والاختلاف بين الانواع الحيوانية لايقف عند الاختلاف بين الاجهزة التي تتلاءم بها الحياة مع البيئة بل يتعداها الى

التفاوت بينها بالعمق ايضا ولولا ذلك لما صنفت الانواع في سلم ذي درجات متفاوته .

ان الانسانية تتمم مابدأت به الحياة ، والحضارة منهابمثابة الجسد من الاحياء : على تقدم كل من هذين الجوين يقوم امر تحرر المعنى من ضرورات البيئة تحررا تقترب به الظواهر من حقيقتها سواء اكان ذلك في عبقرية الفرد ام في عبقرية الامة .

. . .

ان ظهور الامة على مسرح التاريخ مماثل لظهور الالهام في الوجدان او لظهور النوع الحيواني ذي الطابع البديء على مسرح الطبيعة ؛ وكما ان الالهام ينجم في الوجدان كاستجابة تجيب بها النفس على جملة رموز مرتسمة صوراً في الدماغ ؛وكما ان النوع يبدء على مسرح الطبيعة كاستجابة تجيب بها الحياةعلى انقلاب في البيئة فكذلك تظهر الامـــة في تاريخ الانسانية كعقيدة . ان الامة تجربة روحانية في الوجود قدا اجابت بها النفوس على ظروف طبيعية اجتماعية مشتركة . وانه على عمق هذه الاجابة تقاس اصالة الامة .

« وان تمثيل الفرد هذا لما يتمخض عنه الجمهور يظهر في الاحوال المألوفة عند مايقال : انه سبقني الى الفكرة، والفكرة

تحت لساني . ويظهر ايضا في انتشار الازياء وفي شيوع الاراء كموجة في فترة معينة من الزمن . ويبلغ مداه من الظهور في النبوة حيث تسبر اغوار الحياة ويكشف عن الحقائق الخالدة فتحل على ضوء ذلك المسائل المستعصية .»

واذ قيل : ان العنب يسود لدى رؤية بعضه بعضا ، عني بهذا القول ان النضوج يأتي من الداخل وانما البادرة بشارة بقرب الموسم . لكن البادرة في الشؤون الانسانية ذات شأن فهي ، وان كانت عبارة يتجلى بها مايتمخض عنه المجتمع من معنى ، الا انها عبارة توحي للاخرين بالمعنى الذي تعسرت به النفوس في الولادة بحيث يصبح المبشر مبدعا وقـــدوة للاخرين . وعلى هذا فان التجانس في المجتمع والانسجام بين مؤسساتـــه ليسا الا مظهر المعنى المنبثق من اعماق الوجدان وان العبـارة المرتسمة على محيا ابناء الامة انما هي سمة هذا المعنى في التجربة المثلى .

هكذا تعكس المؤسسات الاجتماعية والاوضاع العامـــة ماانطوت عليه قرارة النفوس من مثل اعلى .

وهكذا يدل اختبار المآثر والانسجام في اصطفائها عـلى

تكوين الذين اختاروها تكوينا مشتركا .

الا ان المجتمع يعكس بمؤسساته مقتضيات البيئة من وجهة نظر معينة ، بل يعبر بها عن صبوة الامة نحو المثل الاعلى وما تستلزم هذه الصبوة من جهد وعناية . كما ان طبيعة النوع في الاحياء تتحدد بما يحصل من تفاعل بين الحياة والبيئة وبما تحمل الحياة من استعدادات خاصة . تتحقق الامة بالمجتمع كمثل أعلى تراءى من خلال الطبيعة بما يعتري ذلك من امور عرضية . اما قوام الامة فيتجلى بمنظومة من القيم منها ما يقوم عليه كيان الافراد والمجتمع ومنها مايتخطى بصبوته حدود المصلحة معبرا بزهوه عن ماهية الامة ذاتها .

واما كيف تبدو الامة على مسرح التاريخ كعقيدة فذلك ان الصلة بين النفس والمرحلة التاريخية هي على غرار الصلة بين الجسد والبيئة الطبيعية ، تكشف النفس عن درجة عمقها بتجاوب قطبيها : الصورة والمعنى ، الطبيعة والملأ الاعلى ، وتنم شخصيتها عن وجهتيها في المرحلة التاريخية ، مثلها بذلك كمثل الجسد الذي يعبر بمدى نموه عن التجاوب بينه وبين الطبيعة ، اويدل بطبيعة وظائفه على وجهة التجاوب .

« فكأن الصورة المرتسمة في الدماغ ، بنزعة قواعدها ،

العادات نزعة متقاربة ، تستدرج الايات من الغيب الى الوجدان تستدرجها على ضوء الذكاء الحاصل من التوافق بين الصورة والمعنى .» رسالة الفن للمؤلف .

تقوم صلة الناس بالمرحلة التاريخية على استقطابهم النزعات المتبلورة رموزا في البيئة استقطابا تتحول به الرموز الى حدس مستنيرة. ومتى ما نجم الحدس في الوجدان بدر كمعنى ذي مصور ، فمن حيث هو معنى يصبح مفهوما ملخصا لما تمخضت عنه نفوس الجماعة ، ومن حيث هو مصور ينمي بتحققه الحياة وذلك بتحويله عدائها الى مداد آخذ بالدقة . فينتقل بهذا النمو ما اكتسبه الفرد بتجربته الخـــاصة الى تراث يرثه الاولاد بالفطرة .

كذلك هي الامة ، الهام ذو نظام ، اصولها في الملأ الأعلى وتجلياتها تتبلور في سجايا ابنائها وفي مؤسساتها العامة .

وكذلك تختلف الأمم بعضهـا عن بعض في مدى أغوار تجاربها الرحمانية وفي نبرة الايقاع في نظام قيمها . اما الاغوار فتتجلى في نفوس القادة كعقائد واما نبرة الايقاع فترتسم على محيا ابنائها وكنظام قيم في تراث الجماعة .

ان مثل الامة كمثل القصيدة ، هذه تتأرجح بين الالهـام

والالفـــاظ ، بين المعنى المستفاض من تجربة الفنان المثلى كالهام وبين المعاني المتعارف عليها في الالفاظ التي منها ينسج الفنان تحفته الفنية ، وتلك يتردد كيانها بين العقيدة والعرف ، بين الصبوة المشتركة نحو المثل الاعلى وبين تقاليد الجماعة .

واذا كانت الامم تلتقي بالقاعدة حيث تمس الحيـاة مأخذ قوتها الطبيعية ، (النظام الاقتصادي بحسب كارل ماركس)، واذا كانت تلتقي في الذروة ايضاً حيث تستقر الحقائق الخالدة (كالتقاء المسيح وأفلاطون مثلا في تأملاتهما) فانها تختلف في نظام كيانها وفي اصطفائها مآثر أبنائها . فمنها من يؤثر السيطرة على الطبيعة ومنها من يبقى رائده الملأ الاعلى ومنها من يتعثر في سيره نحو الغاية .

. . .

ان كلا من الامم ترى الوجود من خلال كيانها واذا افـــترض الهنود الاثير اصلا للوجود فانهم قد عبروا بهذه الفرضية عن كيانهم السديمي الايل الى الانهيار . واذا وضع اليونان الجوهر الفرد (atome) كعنصر مقوم للاشيـاء فقد عبروا عما كانت تتمخض عنه شخصيتهم من مثل اعلى ذي معالم محددة كالتمثال . ولما أخذ لامارك (yamarque) يفسر انواع

الاحياء باتزان العلاقة بين الفرد والمحيط كان يشير الى ما تنزع اليه فرنسا من ثبوت واستقرار. وليست نظرية تطورالانواع الا صدى لتطور انكلترة التي وضع أحد ابناوئها ، داروبن، هذه النظرية ، الا يتلخص تاريخ الانكليز بظهور الموهوبين وبنزوع الجميع للتفوق وتثبيت صفات المتفوقين في الاجيال بطريق الاصطفاء ؟ ! ان التطور الملحوظ في تاريخ الارض والتحول الذي يحصل على سطحها ، وان كانا قد اوحيا الى داروبن فكرة نشوء الانواع ، الا ان المجتمع الانكليزي هو الذي هدى هذا العالم الى نظريته بنزعته الى الارستوقراطية والدموقراطية معاً ، بنزعته الى اصطفاء المواهب وتثبيتها في الموهوبين ، وبنزعته الى ارتقاء الطبقات الاجتماعية نحو التفتح بحيث يشترك الجميع في تعيين المصير العام على مقياس أوسع فأوسع .

كذلك هي الأمم، لكل منها نظرتها في الأشياء ، عنها تنبثق وطابعها تحمل .

وكذلك هم الأعلام ، كل منهم يستقطب تيارات بيئته فيعبر عما يصبو اليه المجتمع بوحدة نظر شخصيته .

اما نظرة العرب المستوحاة من طبيعة أمتهم فهي القبة

المستعارة صورتها من قبة السماء ، ترمز هذه الصورة الشعرية الى كل من مراحل تاريخ العالم فيمثل اوجها الرسول الذي هو معنى المرحلة المتجسد بشرا ، والناس فيها على درجات ، تتعين مراتبهم بنسبة اقترابهم من الأمنية . واذا كانت كل من القبب ترمز الى احد الاسماء الحسنى فان تسلسل القبب في تاريخ العالم يرمز الى وثبة الحياة في انتقالها عبر الاجيال .

« ان الامة العربية ، وهي ينبوع الشعوب السامية كافة ، عالم بذاتها ، لم تأفل منذ ظهور الانسان على مسرح التاريخ ، وهي تطهر بفيضها في كل مرحلة ما تراكم من آثام على الشعوب فتهديها الى تحقيق أهدافهـــا » ، مثلها كمثل اصل الوجود (nébclorsité) يتكاثف حينـــا ثم يتناثر بعد حين فتنجم الشموس عن تكاثفه ثم تنتهي بتناثرها في الاثير ، كذلك هي الامة العربية وهي عبارته فانها ابدا مشرقة بنورها على الانسانية وقد تبدو حينا مفككة متناثرة ، ابناؤها منزوون في قوقعة من الانانية ، الا انهـــا لاتلبث حتى يسطع منها نبي او زعيم فيبعث بها من جديد ويلقي النور الحاصل من تأججها شفقا على العالم أجمع فيهدي الأمم حينئذ بمنارته الى تحقيق رسالتها وعند ذلك تتحدى هذه الامة تقديرات المؤرخين .

أفمن العجب بعد هذا ان اوصى العرب فكرة الخلود الى العالم ، الفكرة المستوحاة من طبيعتهم المتصفة بالخلود .

. . .

ان الامة تقوم على التعاطف الطبيعي بين الاخوان كقيام الاسرة على المودة بين ذوي القربى . وكما ان هذه العاطفة تسبق كل فلسفة متعلقة بنشأة الحياة ، فكذلك الشعور الذي يربط الفرد بمصير أمته يبدو في النفس بمثابة البداهة . واليك بعض الحوادث التي تعزز هذا الرأي .

اولا : قامت مناظرة بين النعمان بن المنذر وكسرى ملك فارس في الجاهلية . فقال النعمان لكسرى : « أي أمة تقرنها بالعرب الا فضلتها » . قال كسرى . « بماذا » . قال النعمان : « بعزها ومنعتها وحسن وجوهها وبأسها وسخائها وحكمة ألسنتها وشدة عقولها وانفتها ووفائها ... واما حسن وجوهها وألوانها فقد يعرف فضلهم في ذلك على غيرهم من الهند المنحرفة والصين المنحفة والترك المشوهة والروم المقشرة ، واما انسابها واحسابها فليست امة من الامم الا وقد جهلت آباءها واصولها ... وليس احد من العرب الا يسمي اباءه أباً فأبآً احاطوا بذلك احسابهم وحفظوا به انسابهم فلا يدخل رجل في

غير قومه ولا ينتسب الى غير نسبه ولا يدعي الى غير ابيه ، واما سخاؤها ... فيرضى العربي ان يخرج عن دنياه كلها في مايكسبه حسن الاحدوثة وطيب الذكر ... واما دينها وشرفها ... ان لهم اشهرا حرما وبلدا محرما ... فيلقي الرجل قاتل أبيه او اخيه وهو قادر على أخذ ثاره فيحجزه كرمه ويمنعه دينه عن تناوله بأذى ، واما وفاؤها فان احدهم يلحظ اللحظة او يومىء الايماءة فهي ولس (عهد) وعقدة لايحلها الاخروج نفسه وان احدهم يرفع عودا من الارض فيكون رهنا بدينه فلا يغلق رهنة ولاتخفر ذمته وان احدهم ليبلغه ان رجلا استجار به وعسى ان يكون نائيا عن داره فيصاب فلا يرضي حتى يفنى تلك القبيلة التي اصابته او تفنى قبيلته لما احتقر من من جواره وانه ليلجأ اليهم المجرم المحدث من غير معرفة ولا قرابة فتكون انفسهم دون نفسه واموالهم دون امواله .»

واما قولك ايها الملك : « يئدون اولادهم «فانما يفعله من يفعله منهم بالاناث انفة من العار وغيرة من الزواج ... حتى لقد حاولوا ان يكونوا ملوكا اجمعين من انفتهم من دفع الخراج .

فلما قدم النعمان الحيرة وفي نفسه مافيها مما سمع من كسرى

من تنقص العرب وتهجين أمرهم بعث الى اكثم بن صيفي وحاجب بن زرارة التميميين والى حارث بن ظالم وقيس بن مسعود البكريين والي خالد بن جعفر وعلقمة بن علاثة وعامر بن طفيل ... فلما قدموا عليه في الخورنق قال لهم: « قدعرفتم هذه الاعاجم وقرب جوار العرب منها وقدسمعت من كسرى مقالا تخوفت ان يكون لها غورا ويكون انما اظهرها لامر ارادان يتخذ به العرب خولا (عبيدا) كبعض طماطمته في تأديتهم الخراج كما يفعل بملوك الامم الذين حوله ...»

ثانيا : واليك ماورد في (تاريخ العرب لفليب حتي في هذا الصدد :

« في اثناء حصار القسطنطينية نظر يزيدالى قبتين مبنيتين عليها بثياب الديباج فاذا كانت الحملة للمسلمين ارتفع من احداهما اصوات الدفوف والمزامير واذا كانت الحملة للروم ارتفعت اصوات من الاخرى فسأل يزيد عنها فقيل له هذه بنت ملك الروم وتلك بنت جبلة بن الايهم وكل واحدة منهاتظهر السرور بما تفعله عشيرتها فتحمس يزيد يريد ان يقبض على ابنة ملك غسان ...

« فالقسم الوحيد من شبه جزيرة ايبيريا(الاندلس)الذي

تأصلت فيه جذور الاسلام كان ذاك الذي زهت فيه الحضارة السامية القرطجنية من قبل . ومثل ذلك ينطبق على صقلية وهي حقيقة على شيء من الأهمية ، فقد كان الخط الفاصل بين الاسلام والنصرانية بوجه عام يطابق الحدود القديمة الفاصلة بين المدنية الفينيقية والمدنية القربية . ولم ينته القرن الثالث عشر حتى كان كثيرون من المسلمين قد انضووا تحت لواء النصرانية اما عنوة او صلحاً ، ولكنهم ظلوا متمسكين بشرائعهم ودينهم.

ولقد اقر الاسلام الروابط الطبيعية بين ذوي القربى الى جانب رابطة الايمان المشترك : « ووصينا الانسان بوالديه... وان جاهداك ان تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا » ، القرآن الكريم ، « قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام » القرآن الكريم ،

حتى ان روسيا نفسها قد اقرت الكيان الطبيعي لكل من الامم التي تخضع للنظام الشيوعي المشترك .

وهكذا يعترف كل من ممثلي القطب الروحاني وممثلي القطب المادي بما لاحكام الطبيعة من أثر في تطور البشر .

تبدو الامة للمتأمل في مظاهرها العامة كمنظومة (systéem) فهي من حيث حدود معالمها مغلقة ككل منظومة حتى ولو التبس فيها الاصيل بالدخيل عن طريق التقليد والاستعارة . وهي من حيث الصميم تتفتح لدى تمثلها في الذهن نحو المثل الاعلى ، شأنها شأن كل منظومة . ان كلا من مقومات الحياة العامة يتحول لدى الوعي من رمز الى معنى . حتى اذا ما استقطبت المعاني متقاربة في الوجدان اشتدت الصبوة الى الآية التي هي حكمة وجود النظام .

وايضاحا لوجهة النظر تلك نأخذ من بين ظواهر الحياة العامة ، كاللغة والتشريع والديانة الخ ... ، ظاهرة نستند اليها في عرض موضوع بحثنا . ولتكن اللغة هذه الظاهرة باعتبار انها اكثر التصاقا بالامة وابلغ تعبيرا عنها. لاسيما وان المؤسسات العامة تقوم في غالب الاحيان على استجلاء الحدس المتضمنة في الكلام كما تقوم الحياة عامة على استجلاء ماضمر في الافراد من استعدادات .

انه لمن المعلوم ، بالبداهة ، ان اللغة تتألف من صور صوتية ككلمات ومن معان تنطوي عليها هذه الكلمات كحدس ، وهي جملة كل منسجم تتميز عن اية لغة اخرى بانسجامها الخاص .

وطابع اللغة البديء يشمل الحروف والحركات وهو يظهر بجلاء اكثر في المفردات والقواعد . حتى اذا ماشردت احدى الكلمات من لغة الى اخرى فانها سرعان ماتخضع لنظام هذه اللغة الصوتي بحيث يصعب فيما بعد تعيين هويتها من قبل اصحابها القدامى ، وكمثل لهذا التحول العميق المماثل لتحول الاغذية الى انسجة في البدن نورد بعض اسماء عربية الاصل كا(لصبية)، و(المجدلية) و(ياهو)؛ الكلمات التي تحولت الى (اليزابيث) و (مادلين) و (جيوفا) في اللغات الاوربية . ولايبقى التحول عند تلونات الاصوات ، بل يتناول المعاني ايضا ، وتاريخ الكلمات ، كالالفاظ بل كمفاهيم ، شاهد على ذلك ولاسيما اذا كانت المفاهيم ذات علاقة باصول الحياة الانسانية حيث تضفي الآيات رواءها على المظاهر فتجعل المعنى يحمل طابع الجو الفكري الخاص بالامة . حتى ان العقائد الاكثر دقة والمبادىء الابلغ بيانا تخضع لهذه القاعدة .

هكذا اختلف مدلول كلمة ديموقراطية من امة الى امة ، وهكذا اختلفت الامم في فهم الاسلام والمسيحية وفي تفسير احكامها ، كل منها يسلك طريق عبقريته الخاصة .

ان الحياة تظهر منظومة في الاحياء على تفاوت درجات

انواعها وفي الامم على اختلاف مراتب مؤسساتها من حيث الانسجام . ولاسيما اذا كانت المؤسسات العامة كالادب والاخلاق والتشريع منظومات تعاون على تشييدها النوابغ مع الجمهور بالاستناد الى استجلاء الحدس المتضمنة في الكلمات حتى جاءت كلا اجزاؤه متلازمة متتامة كما هي الحالة في كيان امتنا . والامم بذلك على غرار الاحياء ، تقاس عبقريتها بعمق تجربتها الرحمانية ، بعمق يظهر في اصالة مؤسساتها العامة وفي شمول طابعها للاشياء .

وتبيانا للفرق بين عبقرية امتنا وعبقرية الامم الاخرى نرى من المفيد اقامة المقارنة بين المؤسسات العامة عندنا وعندغيرنا :

ان كلماتنا تبدأ جميعا بالاصوات الطبيعية . فمنها صوت خرير الماء (خر خرخر) المؤدي بالاشتقاق الى (خرب وخرج ..) ؛ وصوت غليان الماء (فق ، ففق) المؤدي الى (فقأ وفقح ...) ؛ وصوت سقوط الماء متقطعا (تر ، ترتر) الذي هو اصل لافعال (ثر ودر وذر ...) ؛ ومنها اصوات (آخ وآن) التي تعبرعن الهيجان عبارةطبيعية ؛ ومنها اصوات (بت وقد) التي تحصل في الفم .

ولدى التأمل في كلامنا يتبين ان العلاقة بين المعنى واللفظ

تقوم ، اما على اقتران الصوت بالشيء كاقتران صوت الخرير بما يحدثه الماء من تأثير في مجراه : خرب او خروج ..، واما اقتران الصوت بما تجيب النفس عليه من معنى كصوت الانين والمعنى المقابل له : الداخل او الصميم و كصوت : آخ ومعناه التوجع و كصوت غيم ومعناه الغيبوبة ، كل بحسب مخرجه وما يلزم عنه من صدى في الوجدان .

وهذان الاتجاهان في نمو لساننا يؤديان مبدئيا الى مجموعة من الكلمات . فاما المجموعة الاولى كحزب وخرج وخرد وخرم فينقلب عليها الطابع الافقي للاشياء . واما المجموعة الثانية كأنا وأنت وأن وعن ومعنى وعناية فيتغلب عليها الطابع الانساني . ولما كان النمو في اللغة يخضع مبدئيا لتجاوب الصورة الحسية مع المفاهيم العقلية من جهة وبين الصورة الحسية والآيات من جهة ثانيه فقد ظل كيان لساننا ذا انسجام بين الصميم والمظهر على مثال الانسجام بين الاعضاء والوظائف في الحياة التي اوجدته كأداة بيان لها . ولهذا فان الكلمة الدخيلة تبقى نابية في لغتنا فتثير الاجيال عليها كما يثير الشوك انسجة الجسد لدفعه .

وأية لغة من لغات العالم تقاس من هذه الوجهة بلساننا؟!

اهي اللغة التركية وفيها يتعدي الدخيل حدود التسعين بالمئة ! ام هي اللغتان الفرنسية الانكليزية وقد قام كيانهاعلى تبني الكلمات الدخيلة ؟!

ولننتقل الآن الى ظاهرة اخرى من ظواهر حياتناالعامة.

وليكن مثالنا في هذه المرة الشريعة ، ان قوانيننا ترجع بالمبدأ الى آيات اصولها في السماء كما ترجع كلماتنا الى اصوات صولها في الطبيعة . وكلتا الظاهرتين تتخطيان بجذورهما تاريخ الى ماهو فوق الزمن . واذا استعار حكامنا بعض القوانين تمشيا مع التطور على حد قولهم فانهم من الدخلاء على امتنا . ومع ذلك فقد ظلت هذه الاحكام دخيلة نابية عن ذوقنا بالعدالة .

اما ماشيد من صرح فقهي من قبل اعلام امتنا فيقوم على مبدأ الاشتقاق كما تقوم كلماتنا على نفس المبدأ : هذه تتخذ الاصوات الطبيعية مصدر الاشتقاق وتلك تستند الى الايات كمبدأ في وضع الاحكام . وفي كلتا الحالتين استند اجدادنا الى مبدأ المشابهة بصورة خاصة . ان الآيات تنجم في وجدان من يعيها بصائر تنجم كنظام خالد للحياة الانسانية بحيث الاحكام المستكملة شروط ماهيتها السياسية حقائق مستقلة عن قيود المكان والزمان . وكلمة (فقه) ذاتها تعني معنى تفتح

النفس عن الحقيقة مستضيئة بنور ذاتها . وانما الشريعة هي وضع الحقيقة في عبارة يسلك عليها الناس في حل المشاكل كقاعدة سلوكهم على الشارع كطريق معبدة . ومن هنا استعمل العرب كلمة (سنة) بمعنى القانون نظراً لما تتضمن هذه الكلمة من معنيين : معرفة وعمل بها . واذا كان العرف قد اصطلح على تحديد استعمال كلمة (سنة) بمعنى سلوك النبي محمد بن عبد الله في تفسير الايات وتطبيقها ، فما احد احق ممن توجب شخصيته في تطورها بالرسالة بأن يستشف من خلال الواقع القائم الحقائق الخالدة .

وهل الاحكام الموضوعة من قبل ائمتنا غير محاولات لحل معضلات الحياة على ضوء الآيات .

كذلك في شريعتنا ؛ جذورها في السماء وتجلياتها بالمجتمع مثلها كمثل الامة التي هي احدى ظواهرها : « ان الحرية والمساواة ، ركني الديموقراطية ، ينتهيان الى الحق وهما منه يستمد ان قيمتها . واذا تميز الانسان عن الحيوان بالقيمة التي يرتفع بها عن ان يكون شيئاً من الاشياء فذلك لانه يتعدى ، بصبوته الى التعالي ، سلسلة الحوادث الطبيعية نحو مصدر القيم الاخلاقية . ان الانسان يستجلي قيم اعماله على ضوء الحق ويحول بهذا الاستجلاء معنى الحياة . في حين ان الاشياء تبقى بتفاعلها

في الطبيعة ، محصورة خاضعة لمبدأ تعادل القوى . واذا ماقدس النظام الديموقراطي الشخصية الانسانية فان تقديسه للحق المقيم في هذه الشخصية الانسانية كتقديس الهيكل الذي يشرف عليه المعبود من عليائه . وقد تكسف القوة الحق عن النفس كما تحجب الغيوم النجوم عن الرؤية . ولكن الحق يبقى متلالئا في عليائه تلألؤ النجوم في افلاكها » . من رسالة المدنية والثقافة للمؤلف .

اذا فتقصير تشريعنا في الآونة الاخيره لا يعود لتقصير فقهائنا في المنهج ، وانما حصل ذلك من التباس الشكل عليهم بالمعنى ، من التباس العبارة بآيتها التباساً ضلوا فيه اكثر فأكثر . ومع ذلك فأين للغير هذا الانسجام ؟ هاهي تركيا الحديثة وقد فاتها الحدس في مبدأ الشريعة ، انها قد استعارت عن امم مختلفة بالعبقرية مصادر قوانينها ، وتدعي بعد ذلك انها تأخذ بمرافق الحضارة ، فهي كمن يرتدي ثياباً عناصرها متنافرة بالزي والمصدر وهاهي فرنسا التي ادعت امس مهمة تهـــذيبنا تتلمس عبثاً طريق خلاصها .

وهل تقتصر بالاصالة مفاهيمنا الدينية عن لغتنا وشريعتنا؟ ان الاسلام هو دين الفطرة وليست ديانات الشعوب السامية التي استظلت الاقوام بظل اعلامها غير قبس من ديانتنا . هاهـو

موسى يقتبس عن شعيب ، الذي هو نبي عربي ، اسم اهـــه (ياهو) ثم حرفه اليهود الى (يـــوه) . ومازال متصوفونا يستعملون كلمه (ياهو) اي ياذا الذي تعجز عن وصفه الصفات معنى افصح عنه علي بن ابي طالب اذ عرف الاله بقوله : (عنه تصدر الصفات لابالصفات يوصف . ثم استعاره فيلسوف فرنسا برغسون فزين به مقدمة كتابه (التطور المبدع).

اوليس اسم (افتاح) او آلهة مصر القديمة تحريفا لاسم (فتاح) باللغة العربية وهو احد الاسماء الحسنى المرادف للقاضي والعادل . ولهذا فانه ليس من العبث ان كانت الاسطورة في مصر الفرعونية تقول بأن جزيرة العرب مهبط الآلهة ، وهذه الاسطورة انما تدل على اصول الثقافة المصرية : سواء في عهدها الحاضر او في عهودها القديمة . ترمز مكة ،مهدرسول الاسلام ، الى بيت شيد في العالم ، اي ترمز الى الاستقرار والحضارة كما رمزت جزيرة العرب في نظر المصريين الى مهـــد الديانة بصورة عامة .

وهل تختلف الديانة البابلية او الفينيقية ، من حيث العلاقة بديانتنا ، عن الديانة الاسرائيلية او المصرية ؟ ومن هما اهـــا حضارة مابين النهرين (آنو) و(ايبا) اذا لم يكن تحريفا ل(انا:

الذي يعنى الواحد الاحد) و (ايه الذي يعني الآية او الاله المتجسد انسانا)بعث في المسيحية :(في البدء كان الكلمة..)؟

واله فينيقيا (أدونيس الذي هو اله الجمال) انما هو اسم منحوت من « ادى بمعنى اعطى) و (في بمعنى النسبة فيفيد باصلها اللغوي(الفيض ، الحسن ، البهاء) .

كذلك هي الهة الشعوب السامية : صفات واسماء حسنى للاله المشتق اسمه في اللغة العربية من (اله ، يالهون) باعتباران الله هو الغايه التي تسبو اليها جميع الكائنات .

ان مقومات الامة ليست لوحدها تظهر بمظهر النظام فكل مايدركه الانسان يحمل طابع العناية واذا بدت الطبيعة كما يبدو التحفة الفنية لدى مثولها في الذهن فان بنية الانسان تضفي طابعها على كل مايتمثل فيها واذا كان للحضارة الحديثة من شأن فهو تحرير العقل مما يلتبس به من طابع شخصي . افلم تقم هذه الحضارة مبدأ اخضاع المحسوس للعقل في دراسة الحوادث ؟ بل ألم تقم المفهوم المعقول للدنيا مقام الصورة الحسية التي اقرها الرأي العام ؟ واذ توج نيوتن نظرية كوبرنيخ باقامته نظام الجاذبية العامة مقام الصورة الحسية للدنيا ذات الآفاق المحددة المستديرة ، فقد ابلغ الحضارة الحديثة

غايتها في هذا الشأن .

ولكن هذه الصورة ، وان اشكلت على الانسان سيره نحو الحقيقة الكونية ، الا انها تلزم عن الطبيعة الانسانية ، ان الحياة عبقرية ، وتتجلى عبقرية الحياة بوضوح متناسب مع الحرية ، حرية الافصاح عن الشخصية ، سواء في الفرد ام في الامة ، فكما ان الجسد يرد عناصر الغذاء الى طبيعة بنيته الخاصة كذلك الذهن يرى الاشياء تتضاءل في الافق بصورة متناسبة مع مدى ابتعادها .

وفي الحقيقة ان الصورة المستديرة للدينا ، ككل حركة منحنية ، توحي بأن الكائنات تخضع لمبدأين متباينين معاً : مبدأ الانتشار في المكان ومبدأ الصبوة نحو الصميم . فيحصل من تباينهما حركة جانبية (latérale) دائرية . وحيث يكون هذان المبدآن متعادلين تنعدم الفردية وتصبح العلاقة قائمة على النسبية ، نسبة الحوادث بعضها الى بعض ، كما هو تعريف القوانين الطبيعية في الحضارة الحديثة . واذا كانت قوة انجذاب الاشياء ، بعضها نحو بعض ، تتناسب عكسا مع المسافة في الطبيعة فذلك لان (الواقع) و (الممكن) يلتبسان حيث يمس المحسوس الرياضيات .

لكن الحياة تنشىء الاحياء صوراً يتلازم في بنيانها الامتداد والمدة تلازماً تبدو هي فيه كنقطة انطلاق في الطبيعة . ومثل نقطة الانطلاق هذه من نسيج الحوادث الكونية كمثل بركان شق الطبقات باندفاعه مشيداً بحممه علماً شاهقاً على سطح الارض الا ان ثمة اختلافاً بين البركان والحياة هذه نقطة انطلاق من خلال العلاقات الطبيعية تتلازم فيها شدة الاضفاء مع فسحة القاعدة فيمثل العمق العمر ، وكل درجة تكتسبها الحياة في صعودها تضفي رواء على مظاهرها فتدو به وحدانية ذات معالم منفردة . بيد ان علو الحمم في البركان يبقى ، مستقلاً عن طبيعة المادة التي تكون فيها .

اذن فاذا ظهر الاتجاه المطلق على الاتجاه النسبي في المراحل التاريخية ذات العقيدة فان الدين مستوحى مما ضاقت عنه الطبيعة واذا قيل ان الانسان مقياس للاشياء فان القول يعني ان الحياة عبقرية ذات تصرف في شؤونها وان صاحبها الانسان حكم في مصير الانسانية .

حتى انه من المستحب ان تقام التربية العامة على مبدأ العناية اي على مبدأ جعل الامة كمحور يدور العالم حوله كما جعلت الحياة الفرد محور الظواهر الطبيعية . والامر واجب في تعليم

الناشئة التاريخ والجغرافيا وكل دولة واعية تتمكن من زمام امرها تتبع هذا المنهج ، تجعل في تدريس الجغرافيا وطنها مركزا للدنيا ، تتبسط في شرح امعالمه حتى يصبح وكانه جسم الامة ، وتتناول أوطان الآخرين بالتفصيل بنسبة مالهم من تأثير على مصيرها ، وتجعل في تدريس التاريخ شخصيتها القومية مثار الاهتمام بالعالم ، تتناول الدول ووقائعها من زاوية نظرها وتتبسط فيها بنسبة مالهذه الوقائع من علاقة بمصيرها ، وكذلك تتناول صحافتها الشؤون العامة بمقدار مالها من علاقة بمصير الامة جاعلة المقالات متناسبة بالصدارة مع وجاهتها بالاهمية . انه لمنهج يقوم عليه الانسجام بين التربية وعبقر الحياة وتبرز به فردية الامة على سطح الحوادث .

. . .

تنمو الشخصية باتصال الوجدان مع البيئة الاجتماعية كما ينمو الجسد باقتباسه الغذاء قوتا من الطبيعة . الا ان النمو يحصل في الحالة الاولى من تحويل الرموز الى معاني بما يتطلب هذا التحويل من جهد وعناية ، بينما يتم نمو الجسد انسياقا بمقتضى غرائز وميول معينة . ومع ما في ذلك من تمييز فان كلا المجتمع والطبيعة كأجواء يؤثران على ظهور الميول في ساحة الشعور

وعلى تثبيت الآراء بالرموز ، والاختلاف بينها هو ان المجتمع تتضمن اعرافه ومؤسساته حدسا يتم استجلاؤها بالخيال . مما يجعل نمو الشخصية منوطا بصدق تفسير الذهن لها .

تقوم الهيئة الاجتماعية بأمرين نحو الفرد : تكشف اولا عما انطوت عليه نفسه من امكانيات ، وتوحي اليه ثانيا بضروراتها الخاصة . فاذا كان منحدرا من أرومة الجماعة حاملا في بنيته ذات امته كقوام شخصيته ، هو يصبو اليها وهي تتحقق به ازدهرت حياته بهذا التجاوب الرحماني بين قطبي شخصيته الصميم والمظهر (المؤسسات العامة) والا فان تنافرت مقومات شخصيته بالهجانة او تباين كيانه مع ماهية الامة يبقى متطفلا على الجماعة ويصبح منها كالطعم من الشجرة يعجل بانهيار الصرح الانساني الذي ينهل منه الثقافة . ان من انقطع عن امته يهبط عن مستوى انسانيته فيستحيل لهذا الهبوط الى مسخ ذي تكوين مصطنع .

ولما كان النمو الشخصية وازدهارها يقومان على انسجام الميول المنطويه عليها بنية الافراد مع الاوضاع العامة فقد اصبحت الامة مماثلة بالوظيفة للاسرة في مد اعضائها بأسباب الثقافة ، فحيث تشف العبارة عن المعنى يسهل التجاوب الرحماني

بين ذوي القربى فينبعث من هذا التجاوب فيض من المشاعر فترتقي النفوس على الفيض الى اصول المكارم الاخلاقية . وفي جو كهذا تثبت دعائم الاخوة . واما الدخيل المتباينة منظومة حياتة مع قوام المجتمع فيبقى فيه الصميم منحجبا عن دواعي الثقافة فتضمر عندئذ جذور العواطف الكريمة . وان يبد في سلوكه من المرونة حتى يوهم الاخرين بالذكاء والألمعية فما ذلك الا مظهر انعتاق الميول الدنيئة فيه من ولاية الميول الرفيعة . وتأييدا لوجهة النظر هذه نقدم بعض الامثلة من التاريخ المعاصر .

كانت كل من فرنسا وألمانيا يخضع لنظام الاقطاع. وكان كل منهما ينقسم بحكم هذا النظام الى جمهور وأمراء اقطاعيين. غير ان موقف الامراء في كل منهما لم يكن واحدا ازاء محنة الوطن ، فلما احتلت جيوش فرنسا بقيادة نابوليون بونابرت ، برلين عاصمة بروسيا ، عقد امراء المانيا مؤتمرا لمعالجة الخطر . ولما سأل أحد النبلاء : كيف كان لقردة اوروبا ، وهذا هو لقب الفرنسيين عند الالمان اذ ذاك ، ان احتلوا جرمانيا التي تمد ملوك القارة الاوروبية وافرادها بالحرس ؟ أجاب عضو آخر من المؤتمر قائلا : « اننا نحن معشر النبلاء قد ارهقنا

الجمهور بقيود الاقطاع بحيث أصبحت حالة الفلاحين لا تسمح لهم بالاشتراك مع السادة في حماية المملكة . ومهما ان قيل هذا القول حتى قرر الامراء التخلي عن ثلث أملاكهم فضلا عن امتيازات الاقطاع للفلاحين بلا مقابـــل . وذلك بغية ايصال هؤلاء الى المستوى الذي يؤهلهم للقيام بواجباتهم في الدفاع عن كرامة الامة.

لكن امراء فرنسا وقفوا موقفاً اخر من سلامة الوطن . فلما عقدت الجمعية العمومية جلستها في ٤ آب سنة ١٩٩ اثناء الثورة الكبرى، وكان خطر الاحتلال الأجنبي قد داهم بلادهم من كل الجهات ، ناقش ممثلو الطبقات أمر رد الخطر حينذاك . وفي هذا الجو الملتهب بالحماس تمكنت بعض النفوس الكريمة من اذكاء الاريحية والنخوة في الاخرين فحملوا رجال الاقطاع على اقرار بيع امتيازاتهم للدولة عل هذا الاقرار يثير حماس الطبقة الكادحة في الدفاع عن الجمهورية . ولكن ، اذا أذعن النبلاء لهذا النداء في حالة من الوجد ، فهم سرعان ما أظهروا الندم على مقرراتهم حتى أنهم اثروا الالتحاق بجيوش الأعداء على التعاون مع الجمهور على دفع العدوان .

وكيف كان هذا التباين بالموقف ازاء محنة الوطن بين امراء كل من المانيا وفرنسا ؟ أليس الامراء في كلتا الدولتين من نفس

العرق أي من الجرمن ؟

كان الامراء في ألمانيا قد ظلوا في بيئتهم الطبيعية بين اخوانهم حيث كانت النفوس تتجاوب رحمانيا فتتفتح فيها الحياة عن مشاعر المودة بين ذوي القربى فيرتقي الجميع على موجها نحو المثل الاعلى بينما كان الامراء في فرنسا يترعرعون في بيئة أجنبية سلبوا سكانها السطان ومرافق الحياة واخذوا يتطفلون على عشرائهم حتى انحسرت فيهم الميول الكريمة .

ومن قبل ، حين حاولت جان دارك النهوض بفرنسا لتشق لها الطريق نحو الحياة الجديدة ، تألب الملك والامراء مع انكلترة التي كانت تحتل فرنسا اذذاك على الامة وعلى قديستها أفلم يقف هؤلاء الدخلاء من الالمان ضد أحفاد الغاليين سكان البلاد ؟ رغم أنهم قد مكثوا بين ظهرانيهم عصوراً مديدة .

وفي روسيا ، ألم يقف رجال الاقطاع موقفاً معاديا من أماني الجمهور الذي تطفلوا عليه كدخلاء ؟ حتى لقوا مصيرهم المحتوم . في حين كان أمراء اليابانيين يقفون من أبناء جلدتهم ، الطبقة الكادحة ، الموقف الذي تقتضيه مصلحة الوطن .

ونحن أيضاً قد عانينا ونعاني اليوم تجربة مماثلة . كان وجهاء البلاد يزحفون الى دوائر المستشارين في عهد الانتداب . كانوا

يتسابقون في اعلان الولاء للأجنبي المحتل ويشتركون معه في المكيدة على الجمهور الذي يستمدون منه قوت الحياة . ومع ذلك فلم تخف نذالة اعوان الانتداب على المعتدي الغاصب . فقد اتخذ منهم أقنعة لسياسته في ارهاق البلاد واذلالها ، يدرأبهم عنه المسأولية . وبعد ان استنفدت فرنسا ثروة البلاد ، حتى جعلت المتزعمين مطية لكل مذلة ، اخذت تدهم ببعض مرافق الحياة بحيث أصبح مثلهم كمثل الشجرة التي اجتثت جذورها ولم يبق لها من وسيلة، للمحافظة على بعض الرمق ، الا بالرطوبة التي تتلقاها عن طريق الورق . بل ان مثلهم كمثل كلب الصيد الذي يلحس الدم المتفجر من قوائمه وهما منه انه يقتات من الفريسة .

كانت الاسر الدخلية تتظاهر اذ ذاك بالانقسام في الرأي: يتحدى شعور الجمهور بموالاته للأجنبي مستنداً في تحديه على حرابه، وفريق آخر يتقنع بالوطنية فيثير ضجة مصطنعة يلهي بها الجمهور عن رؤية مشاكله الكبرى . ان المعارضة لم تكن الا لوقاية سياسة الانتداب فهي منها كصمامة الامن من القطار : ضجة الغرض منها ليس انفجار المرجل بل تخفيف الضغط عنه .

و كيف كان احفاد العثمانيين يسلكون هذا المسلك من

الانتداب في حين كان أبناء عمومتهم الذي هم في الأناضول يبذلون دماءهم في سبيل الدفاع عن وطنهم أثناء حرب الاستقلال ضد اليونان . ان الاسباب متماثلة هنا وهناك . وقد عبر المتنبي شاعر العرب ، عن هذه الفكرة حين قال

« انما الناس بالملوك ولا تفلح عرب ملوكها عجم

. . .

تتعين مرتبة الامة في سلم الحضارة بمدى تنوع نقاط ارتباطها بالارض ، روابط تخضع بها الحوادث الطبيعية لمشيئة أبنائها ، أي بمدى تقدم العلم والصناعة . وتتعين مرتبتها أيضاً بمدى التعاون بين الاخوان على سبر أغوار الحياة الانسانية وعلى دعم الحياة في نحو المثل الاعلى . وهي بالاحرى تتعين بمدى اتصالها مع المرحلة التاريخية المعاصرة اتصالا تستقطب به نفوس ابنائها تيارات الفكر فتحولها الى حقائق منبعثة عن الوجدان . وكما يقاس تقدم الامة في مضمار المدنية بمقياس الالة ، تنوعها وضخامتها ، يقاس تقدمها في الثقافة ايضاً بنمو أبنائها في اتجاهي الفسحة والعمق المتناسبين معاً . واذا كانت المدنية معيار صدق الثقافة في الحضارة الأصيلة فان مرتبة المجتمع تتعين بنظام قيمة وبما يهدي اليه هذا النظام من غايات نبيلة . مثل الجماعات كمثل الانواع الحيوانية :

يتشابه بعضها مع بعض بنسبة اقترابها من قاعدة وجودها الطبيعية وتتميز عن بعضها بغاياتها التي تظهر في نظام قيمها كنبرة ايقاع.

« فاذا كانت الامم تتشابه بالقاعدة التي هي الحياة الاقتصادية، اي الحياة التي يتم فيها التعادل المادي بين ما يستهلك الجسد والغذاء واذا كانت تلتقي بصبوتها في المثل الاعلى فانها تختلف بكيانها القائم بين حدي تطورها والذي يظهر بصورة خاصة في فنونها وآدابها وعرفها الخ ... مظهر ايترتب عليه نوع التربية ودرجاتها في سلم الثقافة الانسانية ». من كتاب للمؤلف

في غاية مرتقاها ، لمرتقى الذي تبقى الحياة في كل من مفترقي سبله بين الهبوط والصعود، بين سهولة الانحدار وصعوبه استئناف الارتقاء نحو المثل الاعلى مهتدية بالخير سالكة مشيئة الحق.

لا الحرية بالمعنى المألوف في الثقافة الحديثة. ذلك المعني الذي حملت طابعة الشعوب في نضالها ضد الاستبداد والاستعباد.

. . .

ما العروبة ومن هم العرب :

كلمتا عروبة وعرب، هما مصدران لفعل (عرب) فالاول يفيد الابانة والثاني يعين : من افصح وابان. والمعنيان يظهران في العبارات التالية ؛ اعرب عنه لسانه: ابان وافصح ؛ والعرب

رباء: الصرحاء الخلص ؛ اعربهم حسباً : ابينهم واوضحهم . اما كلمة (عرب) فهي اسم مصدر اصطبغ مدلولها بصبغة الجمع عندما تشخص .

ولما كانت كلمة (تعرب) بعني تخلق بخلق العرب ، وكانت كلمة (استعرب) تعني صار دخيلا بين العرب ، فقد أصبح تقسيم العرب الى : عاربة ومستعربة ومستعجمة قائماً على مبدأ البيان المبدأ الذي تضمنه فعل عرب مصدر الاشتقاق بالصيغة المعبرة عن حالات العزيزة . اذا فمن كان يعرب على السليقة فهو من العاربة ومن كان يعرب تكلفا وتصنعاً فهو من المستعربة اما العرب المستعجمة فهم الشعوب الساميـة التي انحرفت اداة بيانها عن العربية السليمة ، أي عن الفصحى .

ونحن نستعمل هنـا كلمة (سامي) وفق المعنى الاشتقاقي للكلمة وهو السمو ، المعنى الذي نلتقي به مع الاسطورة القائلة بأننـا أولاد السماء . والسماء هنـا تعني الوجدان والولادة تعني مايبدر في النفس من الاتصال بين الوجدان والرحمن . وليس للسمو أو الهبوط من معنى الا الاقبال أو الاعراض عن مصدر الحياة ومدى ذلك الاقبال أو الاعراض ففي الاقبال ازدهار وفي الاعراض قحط وجفاف .

واذا جاز لنا تصنيف الامم بحسب نظام قيمها وكان طابع النظام يتراوح بين الرحمة والعدالة والرسالة نقول ان الامة التي تقيم كيانها على مبدأ الرحمة يقف تطورها عند حدود الجماعة المغلقة الابتدائية اذأنها تلتم على نفسها وتقتصر العواطف فيها على حدود الغريزة . وان الامةالتي تقيم كيانها على مبدأ العدالة تأخذ بأبنائها نحوانسانية متكاملة(كمل من كم الزهر ،وحرف ل هو عبارة الحركة والانطلاق) . وان الامه التي ينبغ فيها بين الفنية والفنية احد الرسل تقشع ماالتبس بالعدالة من أمور عرضية شكلية . هذا فضلا عن أنها تقوم بتنظيم العلاقات بين الامم على ضوء الانسانية المستجدة في رسالة نبيها بحيث يصبح العالم كما تصبح الارض الطامسة معالمها اثر اندفاع بركاني تحول به السطح الساجي الى وجه ذي معالم .

ومع ذلك فان الحياة تبقى ذات هدف في الرحمة والعدالة والرسالة . وليس بغير الحرية يتشبة الانسان بالاله . ان كل غرض يزيد من بعد الشقة بين الاله وبين كلمته التي برأها على صورته ، خلا الحرية : حرية التملك من الحياة والتصرف بها . واليك اجمل ماقيل عن صبوة العرب في الجاهلية الى هذه الامنية :

«اذاالمرءلم يدنس من اللؤم عرضه

فكل رداء يرتديه جميل

وان هو لم يحمل على النفس ضيمها
فليس الى حسن الثناء سبيـــل

. . .

لنا جبل يحتله من نجـــيره
منيع يرد الطرف وهو كليـــل
وساأصـــله تحت الثرى وسحابه
الى النجم فرع لاينال طويـل

. . .

وانا لقوم لانرى القتل سبـــة
اذا ماروأته عـــامر وســـلول
يقرب حب الموت آجالنا لنا
وتكرهه آجالهـــم فتطول
وما مات منا سيد حتف أنفـــه
ولاطل يومـا حيث كان قتيل »

. . .

فالامة اذن تتناسب رفعتها مع مايمنح نظام قيمها من حرية لابنائها في تنظيم شؤون الحياة حسب عبقرياتهم الخاصة . الا ان الحرية اكليل توجت به الحياة . اشتق الذهن العربي كلمتي : خير وشر : الاولى

من الفيض (خارخيرا من خرير الماء) ، والثانية من شر (شر الثوب وضعه في الشمس ليجف) فقد ادرك بالحدس وجهة النظر المتقدمة . وانما الصراط المستقيم هو السبيل بين النفس وباريها ، بل اقصر السبل التي يتم بها الاتصال . واما الشيطان فهو رمز الشطط ، رمز الانحراف الحاصل من الاعراض ومايحصل من ذلك من الجفاف .

فاذا كانت الاساطير توجز حدس الجمهور في الحقائق ، اذا ، فان العرب ومن تفرع عنهم من شعوب سامية يرون في الثقافة العامل الاول في تكوين الانسان . اي انهم يرون في ماانبثق عن النفس من احكام الحقيقة الانسانية هو العامل الاساسي في تعيين مجرى الحوادث التاريخية . وهم يختلفون بذلك عن الشعوب الهندية – الاوروبية التي تفصح اساطيرها عن وجهتها في الحياة ، الوجهة التي تقوم على الزعم بأن الانسان ابن الارض ، اي اه الروابط التي تحصل من ضرورات البيئة لها الاهمية الاولى في تكوين الانسان والانسانية . وتاريخ كل من الساميين والاريين يشهد على ان النزعتين المتباينتين (والتباين هنا بمعني ان كل منهما يبين مكنونات الآخر) : نزعة الساميين الى التآحد بوحدانية الثقافة ، ونزعة الآريين الى التشتت بحسب مقضيات الطبيعة ،

كانت كل منها قد عينت احدى وجهتين تطور البشر . افلم يشرف الاسلام من على كرسالة، على الامم وتوجيهها نحو وحدة الثقافة ؟! « الايات : «ان الله اصطفى آدم ونوحاً وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين ذرية بعضها من بعض » ، « ان الدين عند الله الاسلام وما اختلف الذين اوتوا الكتاب الا من بعد ماجاءهم العلم بغياً بينهم » ، « قل ياأهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون »، « ماكان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين » ، « كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس في ما اختلفوا فيه وما اختلف فيه الا الذي اوتوه من بعد ماجاءتهم البينات بغياً بينهم .

اولم تقم ايضاً محاولات من قبل بعض الشعوب الهندية الاوروبية لتأسيس امبراطوريات كالتي اسسها الاسكندر المكدوني وروما في العهود القديمة والتين اسسهما الانكلو ساكسون والروس الشيوعيون في المرحلة التاريخية الراهنة ؟ محاولات لجمع امم مختلفة في نظام موحد ولتوطيد السلام بين

هذه الامم . ولكن انى لهذه الامبراطوريات روعة المجاهدين العرب المسلمين في صبوتهم الى الاستشهاد واي كلمة تبلغ بالتعبير عن هذه الروعة مبلغ كلمة « شهيد » بمعنى مشاهدة عالم الغيب لدى اقتحام الموت في سبيل الحق ؟!

يظهر التباين بالتكوين بيننا وبين الشعوب الهندية الاوروبية في اللغة بصورة خاصة . ففي لغات هذه الشعوب تخضع الكلمة لقوانين الصوت الميكانيكية خضوعاً تنطلق به متباعدة في الاختلاف عن ارومتها بحيث يصعب على الاحفاد الاستفادة من تراث الاجداد ، في حين تبقى الكلمة العربية تحت رقابة المعنى خاضعة لمبدأ الاصالة . وايضاحاً لوجهة النظر هذه نأخذ ، على سبيل المثال ، انشودة « رولان Rolland » من الفرنسية وقصيدة « السموأل الغساني » من العربية . فقد وضعت الاولى في عهد « شرلمان » المعاصر لهارون الرشيد وقد سبق وضع الثانية ظهور الاسلام . ومع هذا الفارق بالزمن فان قصيدة السموأل اوضح من جميع القصائد العربية الموضوعة في عصرنا بينما فهم انشودة « رولان » من الصعوبة بحيث انها تحتاج للترجمة من الافرنسية القديمة الى الافرنسية الحديثة .

اما كيف حدث ذلك الاختلاف ، فان اللغة الفرنسية

تاريخية التكوين من حصلت اللاتينية . اي ان سكان فرنسا ، وهم من « الغاليين Gaulois قد تعلموا لغة الرومان المحتلين لبلادهم ومن ثم اخذوا يهملون لغة الاجداد لتقوم مقامها لغة الحكام . وعلى هذا فان الافرنسية قد تقدمت عليها في التاريخ اللغة اللاتينية . وهذه بدورها نشأت تاريخية لغة من اخرى ابعد قدما في الزمن الا وهي الهندية - الاوروبية . ومما عجل بتطور اللغة الرومانية من منظومة صوتية الى اخرى احتلال قبائل « فرانك » الالمانية لبلاد « الغول » التي هي فرنسا . ومن هنا اتى اسم فرنسا .

اما كيف حصل هذا التحول فذلك ان الاطفال في كل جيل من اجيال الامة يتلقفون الكلمات من ذويهم وهم، لدى اقتباسهم اياها ، يحرفونها بعض التحريف . حتى اذا ما مضى على التطور عبر الاجيال احقاب طويلة استحال على الاحفاد تمييز المعالم الاولية للكلمات .

غير ان الكلمة العربية لم تزل على النشأة الاولى : جذورها اصوات طبيعية ومسالك نموها متسمة بالتقدم نحو اداة بيانية متكاملة . اما ماوقى اللسان العربي من عاديات الزمان فأبقاه كمثال حي لنهج الحياة في ايجاد اللسان فهو ان اللفظة قد ظلت

فيه تحت رقابة المعنى . وقد ظل الحدس المنطوية عليه ارومة الكلمات مشرفا على عملية استحداث المشتقات بحيث كان التلازم على اتمه بين المعنى والخيال المرئي من جهة الصـــوت من جهة ثانية .

وقد يظهر في بعض الاحيان تأثير الاقتران او المشابهة او التضاد ، اي احد انماط تداعي الصور في سير عملية الاشتقاق . ولكن المعنى يتغلب في معظم الاحيان على ميل الصورة الى التآلف وفق المبادىء المتقدمة بالذكر فيلقي طابعه على مجموعة الكلمات العربية واليك بعض الامثلة نكشف بها عن نمطي النمو في اللغة العربية : نمط استجلاء الحدس بتجاوب وجهتيه ، المعنى والصورة ، عن مثال استجلاء الالهام بألفاظ القصيدة ؛ النمط الذي تعبر عنه كل من وجهاته احدى كلمة الاسرة المنطوية تحت الأرومة ، ونمط الانتقال من صورة الى صورة تبعاً لمبادىء تداعي الافكار المألوفة . ولنبدأ الان بالنمط الاخير .

الأجيج : الصوت الحاصل من اختـلاف الكلام وحفيف المشي ... ماء اجاج : ماء مالح مر . اجت النـــار : اضطرمت واشتد لهيبها . فكيف اجتمعت في اسرة واحدة الكلمات مشتقات متباعدة بالمعنى حتى هذا الحد ؟ ان الكلمة البدائية التي هي مصدر

الاشتقاق هي صوت الاجيج الصادر عن ذكر الحمام حينما يحوم حول انثاه . وفي هذه الحالة ينفش الذكر ريشه وتشتد حماوته. فمن نفش الريش انتقل الذهن العربي الى موج البحر بالمشابهة من حيث الشكل ، ومن موج البحر انتقل بالاقتران الى ماء البحر المالح المر . هذا من جهة ومن جهة ثانية انتقل بالحماوة ، بالمشابهة ، الى النار التي تضطرم وتشتد حرارتها . اليس اسم حمام نفسه مشتقا من خاصة الحرارة ؟

وهاك مثالا آخر عن هذا النمط ؛ قر اليوم : برد ، وقرت الحية : صوتت وقر في المكان : ثبت واستقر. فكيف اجتمعت هذه الكلمات المتباينة في اسرة واحدة ذلك ان ثمة دويبة مستطيلة تعيش في الماء وتحدث صوت « قرقر » استعار منها الذهن العربي ارومة تلك الكلمات . ولما كانت هذه الدويبة تعيش في قاع الماء في الشتاء فقد اخذ الخيال العربي يتفرع بالاتجاه نحو القرارة والبرودة والكلام .

اما اتجاه المصمم الذي تبقى فيه المشتقات متضامنة بالمعنى كتضامن انغام الانشودة بوحدة الالهام فيظهر في المثال الآتي « ان كلمة ذكاء مشتقة من ذك وهي صورة صوتية مدادية مع أخواتها صك ، دك ، حك الخ ... على اتجاه يتضمن معنى

الاحتكاك والدلك بحسب بيان الحرف (ك) ، والكلمات المعبرة عن بعض تجليات الحدس الحسية هي: ذكت النار : اشتد لهيبها ، اذكى النار : اوقدها ، الذكوة : مايلقى على النار فتزكو به ، الذكاء : الجمرة المشتعلة ، ذكاء : اسم علم للشمس ... الذكاء: سرعة الفهم وحدته ... فكأن الذهن العربي قد ادرك ، حدسا ، الشبه بين تحولات الوجدان من الابهام قبيل اليقظة الى الوضوح فالتأجج عند استكمال شروط هذه اليقظة وبين الشمس الساطع نورها والحاصلة من تكاثف السديم وتبلوره . فعبر عن الذكاء (النور المنبثق عن استجهام النفس) بكلمة ذكاء ، صورته المحسوسة .

وان كلمتي : ابهام وغموض ، بالتباين مع الذكاء يزيد ان حدثه وضوحا ويتمان فهمه :

فكلمة ابهام مشتقة من (بهم) وهذه حاصلة من (بها) بابدال الألف ميما ، وهذا الحرف المستبدل ، بحسب مخرجه ، يفيد المحدودية والاغلاق فيحول هذه الكلمة من ابها الايجابية (بهى البيت : وسعه ، ابهى الاناء : فرغه ، البهاء : الحسن باتجاه التفتح والازدهار) الى (بهم) السلبية (ابهم الباب : اغلقه ، المبهم : الحائط ليس فيه باب ، البهيم : الاسود او ماهو

على لون واحد ، وليل بهيم : لانور فيه ، والبهم صغار الحيوانات والبهيمـــة ، الدابة ، والأبهم : الاصمت والاعجم ، بهم : استغلق) .

وكذلك كلمة غموض ، فانها مشتقة من (غمض) وهذه حاصلة من (غم) وغم صورة بيانية للتعبير عن المعنى الذي تنطوي عليه اكمل تعبير : غمه : غطاه ، : حزنه اغمي عليه : خفي واستعجم ، والغمة : الظلمة ، والغم الحزن .

ومن مشتقات (غمض) : الغـــامض : المبهم والمغلق والخامل والذليل ، والغموض : العيب ، وغوامض الابل : صغارها .

يؤخذ من هذه الصور الحسية والمفاهيم العقلية المتقدمة ان الحالة النفسانية التي تعرض عن المعنى تلتم على نفسها او تغمض وتفقد نورها وتلونها (بهاءها) فتمسي في ظلمة وحزن ، من كتاب (العبقرية العربية في لسانها لؤلف .

الا ان رقابة المعنى للفظة وجعله اياها طوع مشيئته يستلزمان ابدا وعيا على مستوى عال ، وهل يبقى الوعي على هذا المستوى ولا سيما اذا ابتعدت الصورة البيانية عن الفطرة الاصيلة بالهجانة ليست اللهجة العامية نتيجة ارتخاء يعتري البيئة ، ذهنية كانت

ام اجتماعية ؟ اما كيف انحرفت لغتنا من الفصحى الى العامية التي نستعملها الان ، فذلك محصلة اسباب عديدة : منها وأهمها ان الفئة المصطفاة ، كممثلة للثقافة العربية ، قد استشهدت اثناء الفتوحات الممتدة من سد الصين الى بحر الظلمات ، او اثناء الاضطرابات الداخلية من اجل تصحيح الخطأ في الاجتهاد ، اجتهاد الحكام ، من قبل الجمهور الثائر او قمع الثورة من قبلهم حتى اصبح مثل العرب ، اصحاب الثقافة ، كمثل خلية نحل استبدلت بعاملاتها متطفلات على العسل ، ومنها ايضا اختلاط العرب بالاعاجم عن طريق الزواج وعن طريق الهجرة المتبادلة بينهم على مقياس واسع .

لكن الميل يضمر في السليم ضمور المرض وقت الصحة ، يذر قرنه عند ما تعجز الحياة عن السيطرة على ظروفها . مثل الفصحى من العامية كمثل الكياسة من الفلاية . فالاولى تتطلب جهدا وعناية بحسب ما يقتضيه البقاء على الوضع الامثل ، اما الثانية فليست الا منحدرا تؤول اليه مقومات الشخصية لدى انهيارها في حالة العجز عن لم شعثها وتوجيهها نحو الكسم الذي تستلزمه الامنية : وكلمة عامي واعمى تلتقيان في حدس مشترك هو العجز عن تمييز التلونات .

وهل كان ظهور العافية وقفا على عهد الاسلام. او لم تكن اللغات السامية لهجات عربية استغرقت في عاميتها كل الاستغراق حتى تثبت الانحراف بالكتابة اما مافي هذه اللهجات من نظام على الرغم من ان كيانها يقوم على الميل ، فذلك لان كل ظاهرة من ظواهر الحياة تنطوي على النظام سليمة كانت ام منحرفة، فمتى تمثل الرمز في الذهن تحول الى صورة ، والصورة تبدو كنظام من وجهة نظر معينة شأن اللغة بذلك كشأن جميع مظاهر الحياة الاخرى .

حتى لقد يرجع التشاؤم عند الشعوب السامية الى الحدس في تخلف العـــامية عن الفصحى ، الواقع عن المثل الاعلى ، حدس يتراءى فيه الماضي كعهد ذهبي من خلال الحاضر المزور ولقد يرجع الى هذا الحدس التباين الشديد بين قطبي الحيـــاة الطبيعة والملأ الأعلى، تباين يتأرجح الذهن بين حديـــه الرحمن الى الشيطان .

هكذا استوحى كل من الساميين والآريين نظرتهم في الكائنات من تكوينهم الخاص .

ولما كانت الكلمات العربية قد بدأت مع الانسانية ، أي مع ايجاد الحياة اللسان كاداة للبيان . وكانت وجهتا الوجدان

المحسوس والمعقول ،الطبيعة والملأ ، تنموان بتجاوبهما منسجمين في لساننا ، فقد اصبحت جميع مؤسساتنا كالتشريع والدين والفنون الخ ... تقوم على استجلاء الحدس المنطوية عليها الكلمات بحيث اصبح كياننا الانساني متلازم المظهر . جذوره في الملأ الاعلى وتجلياته متتامة في الطبيعة .

وهل وقف الامر عند حد الكيان الاجتماعي الانساني ؟ اليست كل من كلماتنا منظومة صوتية الهامها حدس تجلت به تجربة الحياة المثلى ، التجربة البي رمزت الى حقيقتها اسطورة آدم . حتى اذا اولى العرب عنايتهم للاصطفاء بالنسب فذلك لئلا تطغو نزوات الحياة على النفس فتحجبها بهذا الطغيان عن رؤية تلك التجربة مصدر المعرفة والعمل .

تجنب العرب الهجانة في جميع مظاهر الحياة وفي اصطفاء النسب بصورة خاصة . واذ قالوا : « لا يعلو المرأة من هو دونها » متخذين بهذا القول الاصالة اساساً في الكفاءة ،فقد دلوا على ان الغاية من الزواج هي استئناف الاصطفاء من اجل الوصول الى جيل اقرب فأقرب من الكمال . واذ تكنوا باحد الاجداد دون الاقربين فما كان ذلك منهم الا اعتداداً بمن بلغت فيه الصفات الاصلية الاوج في الاصطفاء « انا النبي ، لا كذب،

انا بن عبد المطلب » الرسول محمد .

وعلى هذا فان كانت ثمة صلة اصيلة بين المعنى والصورة وكان نهج العرب في الزواج يقوم على اصطفاء الخصائل الكريمة، اي على استجلائها كحدس شيدت عليها المؤسسات العامة، فان العهد الجاهلي يلتقي مع الاسلام في الآية التالية :

« امة وسط » بمعنى الاعتدال او القرب من الكمال او ينبوع الحياة الذي هو المثل الاعلى المتجلى حينا بعد حين من عهد آدم الى عهد محمد بالنبوة والرسالة .

تلك هي العروبة ، كتجربة الحياة المثلى التي تتجلى منذ ظهور آدم الى الان كمنظومة معان قام عليها كيان العرب . انها لنظرة فنية اخلاقية في الكون .

اما العربي كمثال يحتذيه ابناء الامة ويدأبون على تحقيقه في بنيتهم كسجية ، فقد كان موضوع شعرنا في العهد الجاهلي بصورة خاصة . واليك بعضاً من ملامح هذا المثال الذي طالما صبا اليه اجدادنا :

« اذا القوم قالوا من فتى خلت انني
عنيت فلم اكسل ولم أتبلد »

« لو كان في الالف منا واحد فدعوا
من فارس ؟ خالهم اياه يعنوفا »

« ان تبتدر غاية يوماً لمكرمة
تلق السوابق منا والمصلينا »

. . .

« تسيل على حد الظباة نفوسنا
ولبست على غير الظباة تسيل »
« ولسنا على الاعقاب تدمى كلومنا
ولكن على اقدامنا تقطر الدما »
« محرمة اكفال خيلي على القنا
ودامية لباتها ونحورها »
« حرام على ارماحنا طعن مدبر
وتدق منها في الصدور صدورها »

. . .

« ولايجزون من حسن بسوء
ولايجزون من غلظ بلين »
« وان توددتهم لانوا وان شهموا
كشفت ازمار شر غير اشرار »
« لاينطقون عن الفحشاء ان نطقوا
ولايمارون ان ماروا باكسار »

. . .

« خطباء حين يقول قائلهم
بيض الوجوه مصاقع لسن »

« لايفطنون لعيب جارهم
وهم لحفظ جواره فطن »

« لاينكتون الارض عند سؤالهم،
لتطلب العلات ، بالعيدان »

« بل يسفرون وجوههم فترى لهم
عند السؤال كأحسن الالوان »

« انا قوم نفي بما وعدنا ، ولاننقض ماابرمنا » .

« اذا سيد منا خلا قام سيد
قؤول لما قال الكرام فعول »

. . .

« عليهم وقار الحلم حتى كأنما
وليدهم من اجل هيبته كهل »

« ان استجهلوا لم يغرب الحلم عنهم
وان آثروا ان يجهلوا عظم الجهل »

. . .

« لقد كنت اختار القرى طاوي الحشا
مخافة من ان قد يقال لئيم »

« واني لاصحيي بيني وبينهـــا
وبين فمي داهي الظلام بهـــيم »

. . .

« اماري ان المـــال غادوورائح
ويبقى من المال الاحاديث والذكر »
« فنفسك اكرمها فانـك ان تهن
عليك فلن تلقى مدى الدهر مكرما »

. . .

« صفونا فلم نكدر واخلص ســـرنا
اناث اطابت حملنـــا وفحول »
« علونا الى خير الظهور وحطنـا
لوقت الى خير البطون نزول »
« فنحن كماء المزن مافي نصابنا
كهام ولافينا يعد بخيـــل »

ولما كانت الخصائص تظهر بوضوح اكثر في مقابلة الاضداد نقدم فيما يلي ما كان يتجنبه العرب :

« لحا الله صعلوكا منـــاه همه
من العيش ان يلقي لبوسا ومنعما »

« يتام الضحى حتى اذا نومه استوى

تنبه مشـــلوج الفؤاد مورما »

خرز عيـونهم الى اعـــدائهم

« يمشون مشي الاسد تحت الوابل »

« ليسوا بأنكاس ولاميـل اذا

ما الحرب شبت اشعلوالها بالشاعل »

اما العرب كنظام حياة يتميزون به عن غيرهم من الاقوام فان مجالهم الحيوي يمتد من جبال طوروس الى جبال البيرينيه . واذا كانت موجتهم قد تخطت في حقبات التاريخ هذه الاسوار الى القسطنطينية وباريس ، واذا كانت انكفأت عنها الى المغرب وحلب ، فان تاريخ الامم يقوم على سنة التأرجح بين السبات واليقظة ، مثله كمثل الحياة ذاتها .

افلا يدل انصهار الشعوب السامية في بوتقة العروبة انصهاراً كليا على اشتراك هذه الشعوب مع العرب في اروومة واحدة . وتعبيرا عن هذه الحقيقة نستشهد بما قال احد شعراء اسبانيا المعاصرين : « انا ورثنا عن اجدادنا العرب انبل مالدينـــا من تراث » ..

. . .

مشاكلنا القومية

ان مشاكلنا القومنة الكبرى ترجع مبدئيا الى عاملين اساسيين : موقع بلادنا في الدنيا ، وماحملنا التاريخ من اعباء. بل ترجع الى ماتنتج من هذا وذاك من فتور في الهمة واختلاف في المؤقف ازاء المصائب العامة .

اما المشاكل التي ترجع الى موقع بلادنا فهي كوننا بين آسيا واوربا ، بين قارة نفوسها مليار نسمة واخرى ينوف عدد سكانها على خمسمائة مليون نسمة . لاسيما ان الاولى تمد العالم بالمواد الاولية والثانية توزع منتوجها الصناعي على جميع الامم، بحيث يشتد بينهما التبادل التجاري والعلاقات الاخرى . وهذا التبادل ليس له من وسائل غير طرق بلادنا . وفضلا عن ذلك فان بلادنا تشرف من الشرق على المحيط الهندي ومن الغرب على المحيط الاطلسي وتحيط بالبحر المتوسط من كيليكيا الى

جبل طارق . ونحن نقف بحكم موقع بلادنا وجها لوجه مع شعوب اميركا من جهة وشعوب آسية من جهة ثانية . ونقف بحكم هذا الموقع موقف المتاخم لكل من ايران وتركيا ودول البحر المتوسط الاخرى . وبناء على موقعنا هذا ، وبناء على امتداد وطننا من خليج البصرة الى جبل طارق ومن جبال طوروس الى الحبشة ، تتشعب العلاقة بيننا وبين الامم المجاورة لنا وغير المجاورة تشعبا تمس به الامم بنسبة تقدمها في مضمار الحضارة واذا ما اضيف الى ذلك تشعب مصالح السكسون في الدنيا وما كان لهذا التشعب من علاقات مع بلادنا أدركنا حراجة مركزنا .

فمن متاخمتنا لايران نتجت بينها وبيننا مشكلة شط العرب وعربستان ، تلك المشكلة التي فرض الحلفاء على العراق حلها لمصلحة خصومنا وكان هذا الحل قد فرض دون ان تثير الحكومة العراقية ابة ضجة . وذلك لئلا يتنبه العرب لما يحيط بهم من اخطار جسيمة .

ومن متاخمتنا تركيا نتجت بينها وبيننا مشكلة كيليكيا ولواء اسكندرون . والمشكلتان قد حلتا على حسابنا من قبل الحلفاء ومنهم فرنسا بصورة خاصة . ان اقتطاع كيليكيا منا

حرم بلادنا من نحومها الطبيعية . وان غصب لواء الاسكندرون منا جعل في وطننا ثغرة تهددنا منها غزوات الدول من الشمال.

اما كيف تآمرت فرنسا علينا ، وهي الدولة المنتدبة على سوريا ، فتخلت لتركيا عن كيليكيا ثم عن لواء اسكندرون ، تينك المنطقتين العظيمتين بخصبها وموقعها . انا نجد مفتاح ذلك السر في قول مأثور ادلى به للصحفيين الجنرال ويغاند ، احد المفوضين السامين السابقين على سوريا ولبنان في عهد الانتداب مفصحا بهذا القول عن اغراض السياسة الفرنسية في هذا الشأن وهو : « ان وجود تركيا قوية على حدود بلاد العرب يخفف من حماسهم ويعرقل تطورهم » ولما كان ويغاند يدلي بهذا القول كجواب القاه عليه الصحفيون : « كيف تخاذلت فرنسا القوية امام تركيا » وكانت لم تختبر بعد انهيارها امام الزحف الالماني بل كانت تحمل هالة مجد انتصارها على الالمان سنة ١٩١٨ . لما كان يدلي به كان احد المدرسين الفرنسيين باللواء يفسر في صف لتلاميذ العرب مغزى اتفاقية خنيف بين فرنسا وتركيا بانها قبر دفن فيه حلم الامبراطورية العربية .

ولما تظاهرت فرنسا بالاختلاف بينها وبين الاتراك على

كيليكيا اثناء حرب مصطفى كمال عرض عليها فيصل الاول ملك سوريا اذ ذاك المساعدة العسكرية من اجل الدفاع عن اسوار البلاد العربية لكنها وقفت من هذا العرض موقفها من عرضنا من اجل المحافظة على حصن بلاد العرب الشمالي : اسكندرون . وكانت فرنسا تقف هذا الموقف من جميع قضايانا القومية : من استقلال مصر وثورة عبد الكريم الخطابي ضد الاستعمار الاسباني . حتى لقد حملها التعسف على التدخل بالقوة المسلحة الى جانب الاسبان الطغاة ضد بطل العرب . وكان غوستاف لوبون احد اصحاب الرأي في فرنسا قد عبر عن مخاوف حكومته عند دخول العراق في جمعية الامم بقوله: « سوف يكون لاستقلال العراق من الاهمية في القرن العشرين اكثر مما كان لبروسيا في القرن التاسع عشر » فحذر بهذا القول حكومته وحكومات اوربا من العواقب المترتبة على ذلك.

اما الاسباب التي تدعو فرنسا لاتخاذ هذا الموقف من قضايانا فهي اولا . خوفها من الوحدة العربية ، ثانيا حرصها على البقاء في المغرب العربي : تونس والجزائر ومراكش خوف وحرص ، كلاهما اعمى بصيرتها في السياسة العالمية ،

ان مرامي السياسة الفرنسية في احتلال لبنان وسوريا لم

تكن لنشر الثقافة كما ادعت . وهل من احد حارب ثقافة فرنسا الصحيحة في سوريا اكثر من محاربة ضباط استخباراتها لها ؟! بل كان قصدها اتخاذ هذا القطر من وطننا كقاعدة تحاول منها منع تطورنا ودرء خطر هذا التطور في جزيرة العرب .

والاختلاف على مراكش بيننا وبين اسبانيا لم يزل قائما على اشده رغم ما قطعه فرنسكو ، رئيس تلك الدولة ، من عهود للعرب الذين ثبت سلطانه في المملكة على حرابهم .

وقد تفوق هذه المشاكل جميعها مشكلة القواعد الحربية لبريطانيا في بلادنا ومن وراء هذه الدولة امريكا والعالم السكسوني اجمع .

وها كم ماقاله احد السياسيين الامريكان عن اهمية موقع بلاد العرب ان المعركة الفاصلة بهذا النزاع ستكون في بلاد العرب . ومن ينتصر في هذه المعركة يكون قد ضمن لنفسه النصر طيلة المرحلة التاريخية الراهنة . » وبعد ماتقدم امن العجب ان استكلب الاجانب على التدخل في شؤوننا وعرقلة تطورنا ؟

لقد بلغ هذا التدخل في المدن في افساد الناشئة حتى حملنا

على القول الآتي : « امس العرب فريقين : فريق أخرس أصم وهو حزب العروبة ، وفريق يسمع ويتكلم وهوحزب الحلفاء وعند ما تنحل عقدة لسان احد البكم يلقي الحلفـــاء شصهم فيصطادونه ويحشرونه في زمرة اعوانهم » .

وكثيرا ما كان نفوذ الدول الاجنبية يشتبك في تحوير اوضاعنا الى حد اصبح من المتعسر معه على ذي البصيرة تعيين الدولة المسؤولة عن الاساءة مما حملنا على القول ايضـــاً بان : « مثل البلاد كمثل ولد في محل الشبهة : فمن الصعب على الناس تعيين هوية المسؤول عن الجريمة » .

ويتساءل المرء كيف كان انتهى مصير العرب لو لم توجه العناية الالهية الاوروبيين نحو امريكا واستراليا فيتحول عنهم الخطر نحو الهنود الحمر ، وكيف تسنى للاجانب التدخل في شؤوننا الى الحد الذي شلوا به فعاليتنا ؟

حين احتل الاجانب بلادنا وجدوا من يتآمر معهم علينا من الدخلاء على بيئتنا وما ان امتلكوا زمام الامر حتى استبدلوا اعوانهم بالوجهاء ، وعندئذ طغت على البلاد زمرة من السفلة : من السياسيين المحترفين والتجار المحتكرين وحملة الشهادات المزورين وعندئذ هان على الطغاة ان يجعلوا من

الخونة قدوة يطمسون بها على الناس الفارق بين الفضيلة والرذيلة وعندئذ هان عليهم ان يجعلوا من الذين يكيدون لـــلامة (قوامة) يقتنصون بواسطتها المغفلين من ابناء الوطن فيدرجونهم في شباكهم بين المتآمرين .

ان ماسهل على الاجنبي اقتناص الناشئة هو حاجتهـــا الى المعيشة ، فليس من مخرج للمتعلم غير ابواب (السرايا) مادامت الزراعة والصناعة عندنا على هذا المستوى من الانحطـــاط . الا يلجأ كل صاحب شهادة ، آخر الامر الى وظيفة في جهاز الدولة ، ومن يأكل من خبز السلطان يضرب بسيفه » كما يقول المثل العامي . وتعبيرا عن هذا الموقف كنت اجبت على سؤال القاه علي احد تلاميذي في تجهيز حماه عن سبب القلق في نفوس الشباب فقلت : « ان ذلك يرجع الى كون قلوبكم مع الجمهور وعقولكم بباب السرايا » .

ولكن لو لم يهمل اولياء التلاميذ مصير ابنائهم ما استطاع الاجنبي الهيمنة عليهم بهذه السهولة ، انه لفي هذا الاهمال يكمن كل الخطر على مصير الامة وعلى مستقبل ابنائها معـاً . فاذا كان الاجنبي قد سلب الامة جهود المتعلمين في حل مشـاكل الحياة العامة ، فانه لم يسبب العقم في نفوسهم الا بعد ان اجف

في قلوبهم ينابيع المسرة . وكيف تنمو الشخصية اذا لم يتبادل صاحبها العاطفة مع الآخرين ؟ كيف تنمو اذا عقد صاحبها النية على الكيد لامانى الامة ؟

ان المكيدة لم تكن لتخفى حتى على تلاميذ المدرسة ، وهاك رأي أحدهم في هـــذا الامر ، وجهت مرة لتلاميذي بتجهيز حماه السؤال التالي : « ما الداعي الى توزيع تلاميذ المدرسة على الاندية » وكان عدد النوادي في تلك المدينة يتعدى العشرين ، فأجاب احدهم بهذا القول : « لكي نجحش عقولنا » ولما سألته « ماذا يفيدكم هـذا التجحيش » اجاب : « الحصول على الشهادة ثم على الوظيفة بلاتعب » « فما هي فائدة رئيس النادي اذا » وكان رؤساء النوادي من اعيان البلد، قال « حل مشاكل الناس في السرايا » .

هكذا يستعين الاجنبي بالهيئات الحزبية على اقتنـــاص الاحداث من بين المتعلمين . ونحن نذكر هنا على سبيل المثال الطريقة التي يسلكها اهل الجزيرة لسوريه في التعرف على أوكار الجرذان : يختزن الجرذ في الصيف مؤونة الشتاء من الحنطة وعند ما يحاول اوشاب الناس مقاسمته ذخيرته في الايام الصعبة يصطادونه ثم يجعلونه في خيشومه قصبة بشكل عرضاني ثم يطلقونه

مقتفين اثره ، فكلما حاول هذا اليائس دخول احد الاوكار عاقته القصبة عن الدخول في حين يكون قد دل بذلك على مستودع الحنطة .

ان ما أوحي الينا هذا الشبه بين الجرذ والجاسوس على قومه هو استعمال الكلمتين على سبيل الترادف في احدى اللغات ، الانكليزية .

وبعد ذلك امن العجب ان يقف تطورنا على حدود التفاعل بين الجمهور والعالم دون ان يكون للفرد من شأن في هذا التطور انا قد ذكرنا بمناسبة مماثلة العقم الذي عترى العرب . وها نحن نعيد القول بأن الاله ، وان كان يشرق شمسه حتى على الكلاب لكن ذاته لاتتجلى الا للنفوس الكريمة .

وهل بقي الامر عند هذا الحد . الا يرجع تفشي السفاهة في البلاد الى محاولة تواري هؤلاء البؤساء عما يعانونه من عذاب الوجدان . مثل النفس من آثامها كمثل المرأة من قذارة سحنتها كلتاهما تتجنب مواجهة البشاعة ، تعرض المرأة عن رؤية محاسنها في المرآة عند قيامها بما يسيء الى هذه المحاسن ، وكذلك تتوارى النفس عن ذاتها ومصدر فضائلها اذا تشوهت بارتكابها الآثام .

وبهذه المناسبة، مناسبة اهتمام الدول بمصيرنا نذكر رأيا كنا ولنيابه كجواب على احد تلاميذنا ، وكان التلميذ هجينا من اب عربي وام تركية ، وكان يتوخى من سؤاله المفاخرة بخؤولته على بني عمومته ، والسؤال هو : « كيف استقل الاتراك وكانوا قد خاضوا الحرب سنة ١٩١٤ - ١٩١٨ ضد الحلفاء ولم نستقل نحن مع اننا دخلناها جنباً الى جنب مع الحلفاء المنتصرين . فأجبت على سؤاله بقولي : « انك تجد الجواب على السؤال في التاريخ اذا القيت نظرة شاملة على حوادثه منذ مطلع القرن التاسع عشر الى الان : ان المانيا لم تفتأ تحاول منذ ذلك الحين جمع شملها وكلما قامت بهذه المحاولة وقفت دول اوروبا في وجهها في حين كانت هذه الدول ة د الكبيرة منها الصغيرة لاستكمال شروط استقلالها متخذة منها حلقات تشد بها الخناق على المانيا . اما السبب في هذا الموقف فهو ان المانيا لديها من العدد والامكانية بحيث يصبح اتحادها خطر على توازن قوى العالم » .

واذا كانت دول اوروبا تقف هذا الموقف من المانيا التي هي وانكلترا وامريكا من ذات العرق الجرماني ومن ذات المذهب البروتستانتي ، وكلها يخضع للنظام الرأسمالي ، فماذا يكون موقف هذه الدول منا . لاسيما ان ذكريات اجدادنا في

اوروبا لم تزل ماثلة في اذهان العالم ، ذكريات عبر عنها احد فلاسفة التاريخ في هذا العصر ، شبنجلر ، بقوله : « لو انتصر العرب في موقعة بواتييه لكانت اوروبا اليوم مزدانة بالمأذن ولكان صوت (الله اكبر) يدوي في جميع ارجاء الغرب .

واذا نحن مثلنا العرب بنارد في قمقم وقلنا : مادام المارد في مكمنه يتصرف في مصيره حتى الطفل ، بينما انه اذا طلع وانتصب غير مصير العالم . اذا قلنا هذا القول لم نكن نعني من القمقم التقاليد البالية والعقلية الرجعية التي تحيق بنا وحسب ، بل كنا نقصد ايضا موقف الدول من قضيتنا .

اما المشاكل ترجع الى مجرى حوادث تاريخنا فهي اولا : الاختلاف في الدين والمذهب بين ابناء امتنا ، ثانيا : الاقليات العرقية المبثرة هنا وهناك ، ثالثاً واخيرا ، مشكلة خمول الجمهور وضعف الشخصية .

اننا ندين بمجدنا القومي للاسلام ، ندين به لمحمد نبي الاسلام وهل يجوز لنا ان نفصل بطل الامة العربية عن رسول الاسلام الى العالم في شخص محمد .

فلما اطل محمد بن عبد الله بمولده على العالم كان ذلك عام الفيل الذي هو اشد الاعوام بؤساً على العرب . ان ذكرى

محنة احتلال الاحباش هذه لجزيرة العرب ظلت ماثلة في نفس بين يعرب قاطبة . واذا كان نبي الاسلام يردد لقومه بانه سيجعلهم اصحاب كنوز قيصر و كسرى ، كان يشير بهذا الوعد الى الاسباب البعيدة التي دفعت بالاحباش الاحتلال قلب بلاد العرب.

وهل اخلفت بالوعد الدولة التي شيدها محمد . الم تجمع شمل العرب وتطهر بلادهم من كل دخيل معتد ؟ اولم تمتد حدود انصافهم هذه الى لم شتات العالم تحت راية واحدة الاوهي راية الحق ؟

ان العالم الممتد من سد الصين الى بحر الظلمات قد خضع في ذلك العهد لشريعة واحدة هي شريعة محمد ، ونهل الناس اذ ذاك من ثقافة واحدة هي الثقافة المتبلورة معانيها في كلمات اللغة العربية . واذ ذاك انتقل العرب من عهد بطولة الفرد في الجاهلية الى عهد بطولة امة شعارها الجهاد ورسالتها خلق عالم تتحقق فيه اماني الانسان من اخوة وعدالة . واذا اتخذ محمد رايته العقاب ووسيلة رسالته الحسام فان الاماني لاتتحقق الا بالقوة ، بقوة يحسم بها المرء بين عهدين : عهد الطغيان وعهد الحق .

ولكن الاسلام يتضمن مع ذلك بذور التفرقة التي تنجم

عن تفسير الايات بحسب عبقرية الافراد والامم المختلفة .

كان المتعارف عليه بين الناس في الجاهلية هو ان الاسلام دين التوحيد او ما نعني به نحن المعاصرين الاستسلام لصوت الحق الداوي في الوجدان الداعي الى المكارم والناهي عن الموبقات . والاسلام في رأي العرب يبدأ مع آدم الذي هو ابو البشر . ومبادىء الاسلام تراث تتناقله الاجيال منذ فجر الانسانية . وانما شأن الانبيا استجلاء ماطمست عليه التقاليد البالية من حقائق خالدة ، شأنهم كشأن البراكين حين تعيد الى الارض سمتها التي طمست معالمها تتأثير عوامل التحات . واذا كانت البراكين تختلف قوهاتها باختلاف قشرة الارض حيث وقع الانفجار فانها واحد من حيث المصدر . وكذلك هي الحقيقة الانسانية : انها خالدة وان اختلف عباراتها باختلاف الاقوام والازمان .

اذا فالاختلاف بين العرب لم يكن على كلمة اسلام بل كان على نبوة محمد . « قدم على النبي اسقف نجران والعاقب فعرض عليهما الاسلام فقالاله : انا كنا مسلمين قبلك » من تفسير الجلالين للقرآن الكريم . « لما نزلت الاية : ومن يبتغ غير الاسلام ديناً ، فقالت اليهود فنحن مسلمون »

ولقد كان لتدخل الاجنبي في اذكاء روح التفرقة اذ ان الروح وقعوا باعوانهم من المعارضين لمحمد في المدينة الى انشاء جامع غير جامعه بقصد الحيلولة دون اتحاد العرب تحت راية بطلهم . ولقد سبق للروم والفرس ان حالوا دون جميع العرب تحت راية شاعرهم الملك الضليل امرىء القيس .

لكن العروبة المتصاعدة موجتها تحت راية الاسلام لم تكن لتأبه للمتخلفين عن المسير . الاان من ينفصل عن موكب الجماعة تضمر فيه الحياة ويضعف تحسسه بالكرامة بحيث يصبح على اخوانه بالمصير عالة .

وكان الاختلاف على من هو احق بان يكون خليفة لمحمد ابلغ اثراً في تفرقه كلمة العرب مما كان على رسالته . وكيف لا . هل يقبل الذهن العربي بالمساواة ام يذعن للامر الواقع اذا لم يقره الوجدان . فلما توفي الرسول تمخض موقف العرب من الخلافة عن ثلاثة اتجاهات : اتجاه تمثلت فيه سلطة الحكم مستعينا بموجة الاسلام في انتشارها وفي نزعة النفوس الخائرة على الاستكانة ؛ واتجاه تتبلور فيه الميل الى التأمل متعففا بعض التعفف عن امور الدنيا ، اتجاه تجسدت نزعاته في اهل البيت اصحاب المشيخة في الجاهلية بحيث حرمت الامة العربية من معظم عناصر

الفكر فيها ، واتجاه بعثت فيه روح الجاهلية متحلية بالاسلام ومتحفزة للاستشهاد في سبيل ماعقدت عليه النفس من ايمان كالخوارج .

ولئن كان الاصطدام بين الخوارج وبين المدافعين عن الحكم حرصاً على عزة سلطان الاسلام قد قدم اروع الامثولات في البطولة في تاريخ العالم فان هذا الاصطدام هو من الاسباب الاساسية التي استنفدت الدم العربي بجد العرب وناشر راية لاسلام بين الانام . وما ان نفذ الدم العربي في الفتوحات وفي الاختلاف على مشروعية الحكم حتى تجرأ هجين ، وهو المأمون على انتهاك حرمه بلاد العرب واحتلال عاصمة بلادهم بغداد بجيش من خؤولته صعاليك ايران . وقام هجين آخر ، هو المعتصم ، بنقل العاصمة من بغداد الى سامراء الكي يحرر بني خؤولته ، اوغاد تركستان ، من رعاية العرب وعندئذ اخذ العرب يتقلصون عن المدن آوين الى الارياف . وعندئذ اخذ الدخلاء والهجناء والرعاع يطغون على سطح الحياة . وما ان طغى الاغيار على البيئة العربية حتى زاغت قيم الحياة الاصلية عن محورها بحيث بدأ الميل سويا .

واذا كان الاسلام قد اذكى الشوق الى المثل الاعلى فان هذا الاذكاء كان في غالب الاحيان الطبيعة . ومتى اصبح الجسد

هزيلا ضمرت فيه الحياة والت الشخصية الى الانهدام . ولما انفصلت الميول الطبيعية عن الصبوة الى المثل الاعلى تردى الناس الى النفاق .

اما مشكلة التشتت في الرأي حول القضايا العامة فترجع الى موقف زمرة المتعلمين موقف المغفل من الحضارة الاوروبية ومن ثقافتنا القومية ، موقف من تنقصه الشكيمة في استجلاء معالم وجهتي الحياة الانسانية . فلما استيقظنا على تباشير الحضارة كان الاجنبي قد احتل بلادنا وكان قد اخذ يشرف على التعليم في مدارسنا . ولئلا نتجه بحكم طبيعة العصر نحو الجاهلية التي هي عهد الفطرة فنجدد نسغ حياتنا ونلتقي مع روح الحضارة الحديثة بحيث تصبح نهضتنا على ينبوع الثقافة المتقدم على كل دين ونعرة (العرب قبل موسى وعيسى ومحمد) ؟ اخذ الاجنبي يدفع بالسفلة الى تشوية معالم عهدنا الذهبي ، منهل ثقافتنا . لم يكن ليخفى على الاجنبي ان نهضة الامم تقوم على البعث اي العودة الى العهد الذي نشأة فيه معالم حياة الامة نشأة طبيعية . فذلك قامت نهضات الامم الحديثة بالعودة الى العهد الذي سبق المسيحية بالظهور ؛ اي قام باستبدال اللغة الام باللاتينية في غربي اوروبا واليونانية في شرقها في كل من الاوطان . واقام مناقب الاجدد

في كل من الاقوام مقام الكتاب المقدس (التوراة) .

كان الاجنبي يتوقع ماسؤول اليه نهضتنا من استقلال واتحاد. وكان يستبق الحوادث فيحاول تضليل الجمهور عن امانيه بضجة مصطنعة وذلك يدفع الاوباش الى اثارة نعرات اقليمية ليس لها من محل في الحقيقة كجمعية (مصر الفتاة) في مصر وجمعية فينيقية الجديدة) في لبنـــان و (الكتلة الوطنية) في سوريا الخ ... حتى انه لم يتورع عن استثمار المغفلين في حلب ضـد دمشق التي هي اليوم عاصمة العروبة . فكأن العروبة قد اندثرت كما اندرثرت وما القديمة . فلكل اقليم قوميته كما كان لكل في فرنسا واسبانيا وايطاليا قوميتها . يالله من تشبث عقيم ورأي سخيف. وهل تتكون الامة بقرار من المندوب السامـــي ؟ اتكوين الامم مصطنع الى هذا الحد ؟ ومن حسن الحظ ان المرحـــلة التاريخية الراهنة لم تبق للنزعة الاقليمية من محل في التفكـير السياسي . حتى لقد اصبحت القوميه ، بالمعنى الضيق ، آخـذة بالاضمحلال . افلم تظهر على مسرح العالم تكتلات سياسية على مقياس اوسع من حدود الوطن ؟ ها كم مثلا تكتـل شعوب الرابطة السلافية : روسيا ، بولونيا ، بلغاريا الخ . . . وحاكم رابطة الشعوب البريطانية : انكلترة ، كندا . الولايات المتحدة

الخ ... وها كم رابطة الشعوب اللاتينية الرابطة التي اخذت تظهر في التقارب بين فرنسا وايطاليا بصورة خاصة.

وهل بقي الاجنبي عند حد اثارة النزعات الاقليمية وحمل الاوباش على الدعوة لها ؟ اولم يحاول اذكاء النزعات الطائفية ايضا ؟ لم تزل الانتخابات النيابية عندنا قائمة على المبدأ الديني في حين انها تقوم على اسس اقتصادية اجتماعية في جميع انحاء العالم واي دولة معاصرة تتخلى عن شأنها في ادارة مواطنيها الى هيئات مذهبية خاصة فتحدث ثغرات في دستور بلادنا . اليس اقرار الحكومة لمبدأ المحاكم الطائفية امتدادا للنفوذ الاجنبي؟ والاغرب من ذلك ان بعض رجال الحكم يعلنون بوقاحة تشجيع المدارس الخاصة . فكأن وضع لبنان المتردي في الطائفية وما آل اليه هذا الميل في انحدار نحو الانانية المادية لم يكفيا كعبرة لنا من اظهار اهداف المحاولة لابقاء البلاد في حالة تفرقة كالفسيفساء.

اليس تشجيع المدارس الخاصة خرقاً لدستور ؟ وهل يتم الانسجام بين الدولة والجمهور اذا كانت برامج التعليم لاتستوحى منه ؟

وقد وصل التضليل في الصحف الى حد من المغالطة حتى اصبح مثل الرأي العام في تردده بين المتناقضات كمثل حمار

بوردان (Bourdin) بين عليقة الشعير وسطل الماء . ومع ذلك فكيف ندرأ عنا هذا الخطر ، لاسيما واننا مقبلون على احداث هامة في العالم .

ان لدينا ثلاث وسائل : العلم والصناعة اللذين تمدنا بهما الحضارة الحديثة وتراث اجدادنا . اما تراثنا فيؤلف ، خلو من الدخيل عليه وما يعتريه من نشوية ، بين النفوس في صبوتها الى المثل الاعلى. واي عهد من تاريخنا انبلج فيه المثل الاعلى عن طبيعة امتنا كقرارة لها وامنية كما انبلج في الجاهلية . ونحن بالعودة الى جاهليتنا ، نلتقي مع اصول الثقافة الحديثة ، الاصول التي تقوم على الاعتقاد بان النفس تنطوي على مقوماتها ، على عقل يؤهلها لمعرفة الحقيقة ووجدان ينير لها سبيل الفضيلة . وفضلا عن ذلك اننا لنتحاشى بهذه العودة ما اورثنا التاريخ من حزازات بين المذاهب والاديان .

اما العلم فيوفق بين الاذهان توفيقاً ينتج عنه التجانس والانسجام بين الناس رغم الاختلاف بين الاقاليم والتقاليد . افلا تؤلف النظرية الهندسية بين عقول التلاميذ لدى وعيهم حقيقتها ؟ واما الصناعة فهي ايضاً تؤلف بين الجماعة بالمصلحة وتدعم انسجام الاذهان في ميلها الى القيام بالاعمال المشتركة .

واخيراً فمشكلة ضعف الشخصية ، في بلادنا ، التي هي اهم

المشاكل كلها . فما قيمة الرأي العام اذا كان لم يتجسد بهيئة سياسية معينة او ببطل قومي يحول الرأي العام من شعور الى عمل . ربما كان شعور الجمهور العربي بأمانيه القومية اقوى مما هو عند غيرنا من الامم . ولكن مانختلف به عن سوانا هو فقدان القيادة لافي السياسة وحسب بل في جميع مظاهر الحياة العامة ايضا . فأينما اتجهت الانظار اثير الترف من حقارة المنظر سواء في الادب او في السياسة . مما حملنا على القول بأن القادة عندنا اشبه بالدجاج الذي يبحث في المزبلة فيلقي منها على رأسه ظاناً انه يزداد بذلك حسنا .

ونظرة على تطور اوضاعنا خلال السنين الاخيرة تكشف لنا عن اندحار محترفي السياسة والمتأدبين في كتابنا اقام موجة الجمهور المتصاعدة . فاذا لم تعرض الا قاعة سينمائية واحدة بدمشق من ثماني قاعات من الدرجة الاولى ، الافلام العربية ايرجع ذلك الى تقصير الجمهور بالذوق ام الى تخلف من يدعي تمثيل هذا الذوق على ركب الحضارة . وبهذه المناسبة ، مناسبة سرعة تفتح الاجيال للحياة المستجدة ، اتذكر انني كنت يوما في احدى قاعات السينما بحلب . وكان بالقرب مني احد اصحاب المجلات وبجانبه ابنه الذي لايتعدى الرابعة عشرة من العمر

وكان كلاهما يستعينان بالترجمة العربية على فهم الفيلم . ولكن الولد هو الذي يفسر ماقصر عن فهمه الاب من سير الحوادث.

وكيف كان التطور بهذه السرعة حتى بدا تباعد الاجيال الى هذا الحد فذلك ان نهضتنا كانت على عكس النهضة الاوروبية ففي الامم الحديثـــة كان القادة يشقون الطريق للجمهور . وكان الجمهور يهتدي بهديهم في سيره نحو الاهـداف المشتركة . لكن التطور عندما بدأ باتصال الجمهور مع المرحلة التاريخية وعلى قدر ما كان الاتصال خلواً من التقاليد كانت عجلة التطور اسرع. اي كانت نفوس الاحداث تشرئب الى تيارات العصر . وكانت هذه التيارات تدرجهم فيها وتوجههم في وجهتها .

ولكن الحياة في نشأتها تحتاج الى قدوة تستعين بها على بناء كيانها شخصية ذات معالم معينة . واين نجد الناشئة العربيـة قدوتها ؟ افي رجال السياسة ، وحياتهم تنقلب من النقيض الى النقيض بحسب ماتقتضيه ظروف السياسة الدولية؛ ام في رجال الادب ، واقلامهم وقف على خدمـــة دوائر الاستعلامات الاجنبية . واذا قلنا ان مثل السياسة الدولية في بلادنا كمثل المدحلة التي تطمس على الحصاة البارزة ، كنا نشير بذلك الى حدسناهذا في الامور .

وهل تنموا الشخصية اذا انفصمت عرى المعارف عن الاعمال في نفس صاحبها ؟ اليست المعرفة من العمل كالجذع من الجذور في الشجرة ؟ كلتا الوجهتين تنموان متناسبتين معاً : العمل يستجلي المعرفة وهو معيار صدقها ، والمعرفة تلقي ضوءها على العمل فتنير له السبيل كما ينتصب الجذع شاهقا على قدر ماتكون جذوره ممتدة راسخة ، ولكن الحال عندنا بلغ فيه استقلال الرأي عما يترتب عليه من الاعمال حد القول بان الآراء تتجاوب في القحوف دون اثر في النفوس ، تجاوب الاصداف في الكهوف .

يصف احد الشعراء الشخصية بهذا القول : من هو الرجل العظيم ؟ هو ذلك عقد النية على فكرة في صغره ثم حققها في كبره وهل تتوفر شروط الاستقرار في بيئتنا او في مدارسنا كيما تنمو الشخصية بنجوة عما يعوقها من اراجيف طارئة . في سنة ١٩٤٥ ، عندما عدت الى التعليم ، كان الدوام خمسة واربعين يوماً فقط خلال العام الدراسي . ومع ذلك كان النجاح في الامتحان بنسبة عظيمة . وهل تنمو الشجرة اذا قلقت جذورها ؟!

ان الجسد هو رمز الشخصية . فهو ذو نمو متواصل في

الاحياء الراقية حيث تتفرع الجرثومة عن الخلايا فتأتلف الخلايا في الانسجة وتنسجم الانسجة في الاجهزة . تفرع يبلغ مداه حتى الخمسين سنة عند الانسان ، تاج الخليقة ، بينما هو مبعثر في الاحياء البدائية ، مداه لا يتعدى هنيهات متضائلة بحيث تلتبس الحياة بالبيئة فتخضع بهذا الالتباس لاراجيفها . او كذلك الشخصية تحتمل كل الدرجات من خضوع صاحبها للنزوات والعادات الى تنسيق مظاهر الحياة وترتيبها امادا طويلة .

ولكن اذا كانت العناية قد أخذت على عهدتها امر انشاء الجسد ، فان الشخصية يتم انشاؤها باشتراك صاحبها الفرد مع المجتمع . وهل يقوم مجتمعنا بهذه الوظيفة ؟ أليس ديدن موظفي الدولة سلب الثقة من قلب المواطنين بالحق والعدالة ؟ فما حل المشاكل بالالتماس ، اذا لم يكن نكران مبدأ القانون والكفاءة الشخصية .

« مثل الحياة كمثل الماء ، فان يركد الماء يغور في جوف الارض او يستنقع فتعيث فيه الديدان ، وان يجر يضف على مجراه حلة من العشب والزهر ، وكذلك الحياة تغور في صاحبها الانسان اذا تردد وتملكت منـــه الحيرة ويصبح عندئذ بين الجدب والانانية .

ولكنه اذا عقد العزم على العلى واتخذ لهدفا أسمى تفتحت نفسه عن مكنوناتها » .

« ان الاهداف تثير القوى الكامنة في الحياة وتحفزها بهمة متزايدة ، وتزايدها يتبع مرتبة رفعتها وصدق تعبيرها عما تتمخض به النفس من امنية ... ولكن تأثير الهدف في النفس يزداد ايضا مع مدى اشتراك الجماعة فيه كأمنية ، وتعبيرا عن تأثير هذا الاشتراك فيه ، قيل ان الحياة كالنار تشتد ذكوتها بانتشارها ... واي هدف يبعث بخيال أفسح مما تبعثه العروبة في نفوسنا كعرب . فان نلق نظرة على امتنا عبر الزمن نرى تاريخها يرتقي الى اصول الانسانية . وان نسرح الطرف في العالم نرى بلادنا فيه بمثابة القلب من الجسد ... واي هدف نلتقي فيه اماني العرب غير استقلال العروبة بالمصير عن كل دخيل . انه لعلى الاستقلال يتوقف انطلاق الخيال وازدهار الحياة كشخصية ذات معالم معينة .

. . .

الاسرة

الاسرة هي رابطة اصلهـــا في الحياة وفرعها في المجتمع، رابطة طبيعية مثالية تتراوح بين البراءة والقدسية ، بين براءة الحب وقدسية العهد . هذا اذا لم تدنسها الانانية .

اما الحب فيتأرجح بين الهوى والشغف ، بين هوى فنان وشغف ولهان ، بين ميل الحياة الى التنقل وبين صبوتها الى التسامي والميل الاول تجسد بالفراشة اذ هي تنتقل من زهرة الى زهرة مرتشفة بهذا التنقل عبير الحياة . وصبوة الثاني يرمز اليهـــا النسر اذ هو يرتقي الافاق متعاليا فيتذوق بهذا الارتقاء رونق الاضواء الآخذ رواؤها بالتكيف مع الرفعة . الا ان الحب عند الامم الحديثة ، اذا كانت نزعته الى المتعة تتمثل بالفراشة ، فان الحب ذا الامد غير المتناهي عند العرب يسبغ على الطبيعة رواء حياة متسامية فيبعث في النفس بروعة المشاعر التي ارتقى

في صيانته اليها انه لاختلاف تترتب عليه نتائج خطيرة في مستقبل الامم ، اليست حكمة وجود الحب وما يذكيه من دلال استنفار للقوى الكامنة في الحياة بحيث يتزود الولد ، ثمرة القلب بما يجعل منه نوعا انسانيا اكمل فأكمل ، او ليست الشكوى من تناقص العبقرية في هذه الحضارة ترجع الى تشتت الحياة في النزوات .

واما العهد فمستقره المجتمع بحيث يتلقى حلة نقيه من عاديات الزمن . انه على رسوخ الرابطة الزوجية في الحياة وثبوتها على الدهر تقاس متانة المجتمع . وفي اية امة بلغ ما بلغه عند العرب ، امر تميز قدسية العهد في الزواج من دنس النزوات .

يقوم كيان الاسرة على الرجل والمرأة . والرجل في هذا الكيان يرمز الى المثل الاعلى اذ هو يصبح لبنيه قدوة . والام فيه تفيض بالمشاعر فتذكي عواطف البنين ان وداعة المرأة وميل الرجل الى السيطرة وتبادل العواطف بين الاخوة ، كل ذلك يجعل الاسرة بيئة تتفتح فيها الحياة وتزدهر ، ففي جو كهذا يتدرب الناس على القيام بالاعباء العامة ، يتدرب اعضاء الاسرة على القيام بالواجبات عن طريق المحبة ، محبة الابوين للاولاد

ومحبة الاخوه فيما بينهم ، انما المحبة سبيل المعرفة وحافز للقيام بالواجب واقامة العدالة . ومن لم ينعم بهذا الجو الرحماني يبقى قلبه ظمآن الى العاطفة ، واذا كانت كلمة (اسرة) تدل بنشأتها اللغوية على المصدر المشترك فان كلمة (أخ) تعني باشتقاقها من (آخ) البنيان الرحماني المشترك ، البنيان الذي يتضح لدى ظهور النكبة بصورة خاصة .

في الاسرة يشف البنيان المشترك بين الاقارب عن المشاعر فتتجاوب العواطف ، وبتجاوبها تنمو الحياة وتزدهر . في جو كهذا تتفتح نفس الام عن مشاعر الحنان والرحمة ويمارس الاب ما فطر عليه الرجل من ميل الى السيادة ويقيم العدل بطريق المحبة ، وتزهو قلوب الابناء بالاماني والآمال . وفي جو كهذا يتحول التلازم بين الاعضاء الى الحرية ، حرية الاشراف من عل على حاجات الحياة ومشاكلها .

ولما كانت الاسرة تدعم الخصائل الكريمة في نفوس اعضائها وتحفزهم الى العلى ، وكانت تؤلف بتلازم اعضائهـــا بالمصير ، هيئة يراقب فيها الاخوان بعضهم لئلا يخرج احدهم على تراث الامة فقد اصبح الاستقرار فيها يمد الحياة بصبوتها نحو المثل الاعلى ويذكي في اعضائها الميل الى الارتقاء نحو انسانية متكاملة ،

ويدعو الجميع الى ان يدرأوا عن بعضهم خطر الفاقة .

هكذا ترفع الاسرة الى المثل الاعلى بالمحبة وهكذا تجعل الحياة وسيلة لغرض اسمى .

ولئن كانت الاسرة تنمي العواطف في نفوس الابوين والاخوة ، وكانت تحد من نزواتهم الجامحة ، فان شيوعية النساء والاطفال تسبب هدر الروابط الانسانية وحرفها عن صبوتها الى المثل الاعلى نحو اثانية تحمل في ذاتها عوامل انهيارها .

وثمة خطر يعترض الاسرة في تطورها نحو انسانية راقية ، الا وهو الزواج بين العروق المتباعدة في الاصطفاء . انه وان كانت قلوب الاقارب تشف لبعضها عما اختلج فيها من عواطف ، وان كانت هذه القلوب يتعاون بعضها مع بعض على دعم الحياة في صبوتها نحو الكمال ، الا ان الزواج المتدني يسبب التداخل (interfvrence) في قاعدة الخصائل فيستنزل الحياة نحو التردي والانتكاس .

. . .

وعندما تتداخل في بنية المهجين خصائص ابويه المتباينة تغور من جراء التداخل قاعدة الخصائل الكريمة في الجملة العصبية

وعندئذ تنطبق الميول الدنيئة مستقلة عن ولاية الميول الرفيعة بلا وادع يردعها . واذا ماتدنى الهجين وضمرت فيه الميول التي يراقب بها النزوات اختل كيانه وتنافرت مقومات بنيانه . وعندما تغور في بنية الهجين قاعدة المثل الاعلى يشعر بالتقصر عن الامنية فيندب حظه على هذه النكسة . مثل الهجناء في التدني كمثل الاحياء في التردي ، كلاهما يستحيل الى مسخ مستكره .

وقد تهتاج حينا الصفات الاصيلة في الهجين حتى تبلغ اوجها بحيث تصبح الميول الدخيلة بثابة منبه (réactif) مثيرة للنفرة من بنيته المنحطة كما كانت حالة هجناء العرب الذين هم الشعوب السامية . ولكن سرعان ماينطفىء الوهج فتنزل الاحفاد منغمسة في مجموعة الرعاع فيؤلفون معهم سديما من البشر . وقد تتحرر الانانية من روادع الاخلاق في الهجين بحيث يكتسب المرونة في توجيه نزواته ؛ ولكن هبوطه عن فلك شخصيته وتصرفاته الشاذة في الهيئة الاجتماعية يحدان من نجاحه .

يفقد الهجين ثقته بنفسه فيستسلم الاراجيف بيئته . انه عديم الاستقرار تائه محتار . مثله في المجتمع كمثل الطفيليات في الحياة

يتلقى عن الاخرين قواعد الفكر والعمل. ان الزواج بين عرقين متباينين من البشر مماثل للتطعيم بين نوعين من الاشجار حيث يجري النسغ في غير مجراه . انه يجعل الشجرة تعجز وتتخ ، هذا اذا لم تتيبس . افلم تعاقب الطبيعة بالعقم التصالب بين الانواع الحيوانية المتباعدة ؟ اولا يثير في نفس المتأمل البشاعة انتقال الثقافة بالتلقين من امة الى امة .

وبعد ذلك فليس من العبث ان حرم العرب ، وهم ذوو الخبرة الاصلية في شؤون الوراثة ، الزواج من الاعاجم . واذا عبروا عن شعورهم نحو الزواج المتدني ، بكلمتي (هجين) و (مقرف) فانهم لخصوا ايضاً قاعدة الزواج الذهبية بجملة مأثورة وهي « لا يعلوا المرأة من هودونها » . ان خروج الفرد على هذه الحكمة العملية يودي بمزايا الامة ، تلك المزايا التي كلف اصطفاؤها جهود اجيال عديدة . ان الاصالة هي رأسمال كرسته العناية .

. . .

اننا نحاول هنا ان نرسم صورة الاسرة العربية كما هي في الحدس العربي لا كما هي في الواقع الفاسد حيث اعتراها كثير من التشويه خلال مراحل التاريخ . ونحن اذ نرسم هذه الصورة نستند الى الكلمات التي تبلورت فيها حدساً المعاني المختلفة ذات العلاقة بهذا الشأن :

اولا التثنية في الضمير نحو (انتما وهما) حصلت من (انتم وهم) اللتين هما صيغة الجمع في المخاطب والغائب ، بالحاق حرف الف ، عبارة المشاركة . ان هذا التكوين يوحي بان العائلة التي هي الزوج والزوجة قد حصل تبلورها داخل الاسرة ومتأخراً عنها بالظهور وبأن تقوم على مبدأ ثنائية الزوج التي اشار اليها القرآن بالآية : « خلقناكم من نفس واحدة وجعلنا منها زوجها » وبأن الرجل يتفوق على المرأة لأن صيغة التثنية قد حصلت من جمع المذكرة لا من جمع المؤنث . وهنا ايضاً يلتقي الحدس العربي مع اية اخرى هي « الرجال قوامون على النساء ». ولم يزل الذوق العربي على هذا المنحى اذ يقول الرجل (نحن ، اهل البيت) دون ذكر المرأة حشمة لا ترفعا .

وعندما نحلل العبارة الصوتية المستعملة كضمير في المتكلم والمخاطب والغائب نجد ان المخاطب والمتكلم يمتان بصلة الى صوت الانين الذي هو عبارة الهيجان الطبيعية ، وان الغائب هو تحوير لصوت (هو) عبارة النداء . مما يحمل على الاعتقاد بأن الاسرة يلازم تكوينها الطبع البشري . اذ ان كل الصوتين بدئي يشير الى استعمالها لدى ظهور الانسانية على مسرح الوجود ، اي لدى اقامة الرمز مقام الصوت الطبيعي . وان الاسرة

الأبوية ظهرت مع ظهور اللغة اي مع ظهور الانسانية . ولذا فان ماقيل عن الاسرة الطوطمية الامومية كمبدأ للأسرة العربية هو قول باطل لايستند الى شيء من الحقيقة .

ثانياً : وكلمة (حب) ذات النشأة الصوتية المشتركة مع (هب) و (أب) تعبر عن معنى الظهور والاعتلاء، معنى تنطوي عليه عبارة الهيجان التي تحصل لدى القفز في الهواء وربما كانت كلمة (up) الانكليزيه راجعة بنشأتها الى هذا التعبير الطبيعي اما الاحرف الاول المتحولة في هذه الكلمات اي احرف (ح) و (أ) و(ه) المتقاربة بالمخرج فتعبر عن تلونات الحدس المنطوية عليه تلك النشأة .

ومتى تعتلي الصورة في الذهن فتظهر على سواها فيه؟ أليس لدى اتجاه لذهن اليها بالانتباه لكن الانتباه ينطوي على ميل في النفس بمثابة الابرة من الحاكي. ان العلاقة بين الميل وغرضه على مثال العلاقة بين الأنشودة المسجلة على الاسطوانة والابرة : هذه تبعث بالتموجات الصوتية المحفورة في الاسطوانة اخاديد وذلك تبعث بالحركة . وكذلك هي العلاقة بين الاشياء والغرائز وبين التحفة الفنية والالهام . وانما شخصية المحبوب هي صورة روح من يحب . صورة مجسدة .

الا ان الغرض يرمز الى نزعته رمزاً فاذا ماقصر شخص المحبوب عن مثله الاعلى (نموذجه) لجأ المحب الى الخيال كيما ينشىء صورة مثلى يعوض بها عما كان من تقصير في الواقع ، وليس لسبب اخر ترجع الخيبة في الحب . ان الحب حدس تدوك به المستقبل جملة ادراكا تبعث به امكانيات الحياة امنية ورجاء واذا كانت هيئة المحبوب توقظ كوامن الحياة وتساعد على استجلاء الصور المثلى في الوجدان ، فان الصورة المثلى ايضاً تضفي من روائها على سبب انبعاثها فتجعله اقرب الى الكمال . ان شأن الحب هو ان يجعل الحياة تستجلي نماذج ذوات معالم اوضح فأوضح .

ويبدو الحب اما كميل يتجه نحو الواقع واما كصبوة تتجه نحو المثل الاعلى . فهو ينزع في الحالة الاولى الى صبوة جذورها في الجسد ، ويصبو في الحالة الثانية الى حيث يستقر المثل الاعلى فيعوض بالرفعة على صاحبه عن قصور الواقع . ولكن لما كان سبيل الامكان منشعباً وكان مايودي منه الى المثل الاعلى ضيقاً حرجاً اصبح الحب لايبلغ مداه الا في النفوس المجهزة بفسحة الخيال وبذوق عريق في الاصالة . ان الحب هو الشعور بروعة المثل الاعلى المتجلى في نفس الذي يهوى .

ثالثاً : وكلمة عشق الحاصل تكوينها من (عش) بالحاق حرف (قد) بها ، الحرف الذي يعبر عن المقاومة . تفيد ان الغرض من العشق هو انجاب البنين . اما المقاومة التي هي هنا الدلال فهي وسيلة تثير بها المرأة كوامن حياة الرجل وتذكيها بغية انجاب اجيال اكمل فأكمل . فالعشق ينطوي اذا على الاصطفاء وعلى نزعة الحياة الى التطور والكمال . اما الخطوبة فتشير بأصولها (خط) الى التشبث والاقدام ، الى الحدس المتضمن كل المستقبل الذي يكلله الزواج حسبما تشير هذه الكلمة على عودة الرجل والمرأة الى الوحدانية المثلى التي اشار اليها القران وهناك بعض الاقوال المأثورة بهذا الشأن ، لكل شيء ثمره وثمرة القلب الولد » ، « اولادنا اكبادنا تمشي على الارض » ،

«وهل ينبت الخطي الا وشيجه وتغرس الا في منابتها النخل»

« ليس في الحب مشورة»، « تجوع الحرة ولا تأكل بثديها»، « الاصيل يجود » ، « اياكم وخضراء الدمن » ، « ان النساء شقائق الاقوام (الرجال) » ، « عقل المرأة في جمالها وجمال الرجل في عقله » ، « الحر حر وان مسه الضر »، « ان الارحام اذا تماست تعاطفت »، « الخ ...

. . .

المرأة

لئن افترق عن الحياة جنساها ، الحيوان والنبات ، فقد حققت بهذا الافتراق نزعتيها الى التجول والاستقرار . واذا بلغ التجوال غايته بصولة الرجل فان الميل الى الاستقرار ادرك زهوة بالمرأة .

ولما شتق الذهن العربي كلمتي (سيد) و (أسد) من ذات المصدر ، مصدر سد حماه في وجه العدى ، عبر عن صبوة الحياة الى التجوال . فالأسد . أسد اذ يحمي غابته والرجل سيد اذ هو يصون منزله . في حين ان المرأة تبقى مع بنيها في حرجها المقدس

ولما خص الذهن العربي الانوثة بعلاقة الفتح ، وهي العلامة الحاصلة من ركون اللسان عند خروج الصوت ، عبر عن وداعة المرأة وميلها الى الاستقرار وهل الحروف (ت ،ي ،أ) كما هي في (فاطمة وسلمى وأسماء) غير تحولات لحركة الفتح تلك .

ولكن اذا كانت المرأة اقبل الى الاستقرار استقرارتم به وظيفتها ، فانها تبعث في نفس الرجل النشوة وتذكي فيها كوامن الحياة . حتى اذا ما اطلع طيفها ، على قلبه انجبته الافكار الاخلاقية الفنية التي يشيد عليها صرح المجتمع . مثل المرأة كمثل الشمس التي يوقظ شفقها الاحياء من رقادها .

امن العجب بعد ذلك ان قيل ان المرأة تخلق الرجل مرتين: مرة بالولادة ومرة بالحب » .

الم ينحدر العربي عن افق رفعته حين اعرض عن رعاية المرأة؟ اولم يلازم درجات انحداره انزواء المرأة عن مسرح الحياة العامة؟ ان تطور اسمائه من امرىء الى رجل ثم الى زلمه يدل على تحول صفاته من المروءة الى الرجولة ثم الى هيكل بخيف الطيور . ولقد كشف عهد الاحتلال ، العهد الذي عانت فيه البلاد الذل والهوان عن مدى تردي الرجل وتخلفه عن واجباته في صيانة مقدساته . بينما كانت المرأة وفيه لوظيفتها الاصلية فأقر لها المجتمع اسمها المشتق من المروءة تقديرا لذلك .

وفي هذه المرحلة التاريخية تستكمل المراة شروط وظيفتها اذا عادت الى شأنها في الجاهلية : ان تشرف على الشؤون العامة وترعى بعنايتها الحياة الاجتماعية السياسية. اشراف وعنايه تثبت بهما الرجل على واجباته وتبعث في نفسه النخوة، اشراف وعناية تردع بهما ممثلي السياسة عن الخسة والنذالة. ومتى . تم ذلك عادا الناس الى ما كانوا عليه من مروءة في الجاهلية .

وتستكمل المرأة شروط وظيفتها اذا شملت الاندية برعايتها وتوجهت اليها بعنايتها فحولت الرجل مما هو عليه ، من غلظة الى

رقة ومن خمول الى نشوة. ان المراة تشحذ الهمة بعنايتها وتذكي المشاعر النبيلة وتحيي الخيال . ومتى تم لها ذلك جعلت من الرجل بطلا وفنانا .

اما واجبات المرأة العملية ، الوجبات التي بها تكمل وظيفتها وتحقق شخصيتها ، فهي ان تكون ربة منزلها تلقي عليه طابعها بترتيب شؤونه وتنظيمها كيما يجعلن منه لوحة فنية يلهو بها الرجل عن اعباء الحياة ويخلع عنه عناءها .

تقوم المرأة بواجباتها اذا حولت المنزل الى موقد يومي تلهب فيه الاولاد بتراث الاجداد وتبعث في نفوسهم ذكرى الابطال والمناقب الجليلة بعثا تنمي به الخيال والمشاعر الكريمة.

تقوم المراة بواجباتها اذا دربت بنيها على مفاهيم العلم الاولية فاستعانت بادوات المنزل على الكشف عما انطوت عليه هذه الادوات من معارف طبيعية . وهي بذلك تقوم تفكيرهم وتخلق الانسجام بينهم وبين المرحلة التاريخية . هذا فضلا عن انها تضفي على مفاهيم العلم من مشاعر الامومة فتقي بنيها من التجريد وجفافه فتبقي للطبيعة بجهتها الاولية .

ان سعادة المرأة هي ان تبقى على طبيعتها وان تتعاون مع الرجل على تحقيق مانطوت عليه فطرتها من فن وفضيلة :

« جعلناكم من نفس واحدة وخلقنا منها زوجها » . هذا بصرف النظر عن فارق الجنس بين الرجل والمرأة.

. . .

الظاهرة الاكثر شيوعاً والآخذة في انطلاقها بسرعة متزايدة هي سفور المرأة . وعندما نلقي نظرة على الحجاب وما يتعلق به من مستلزمات فنتتبع تطوره خلال الربع الاخير من هذا العصر ندرك ما ينتظر هذه الظاهرة من مصير محتم .

كانت المرأة تقيم في الحرم داخل منزل مغلق ليس نوافذ لجدرانه تطل منها على الشارع ، وكان الحرم مفصولا عن (المنزول : السلاملك) وهو محل استقبال الرجال بمسافات شاسعة . وندر ان كانت المرأة تتعدى اذذاك حدود عتبة دارها . وعندما كانت تخرج كانت ترتدي ملاءة تطمس على معالم قوامها وكان القناع خاصة يخفي بتضاعيفه قسمات محياها . اما اليوم فقد اصبح البيت محل استقبال الضيوف من الرجال والنساء على السواء . وقد اصبح لهذا البيت نوافذ تبدو منها المحاسن للشارع . والنساء اللواتي لم يسفرن بعد ، وهن اقلية ، يخرجن من البيت مرتديات المألوف من اللبـــاس فرق بين البيوت والمنتزه . وقد اصبح الحجاب من الرقة والقصر بحيث يزددن به فتنة .

هذا ، هو الواقع ولكن هل هذا الواقع نتيجة تطور عام ام و ظاهر شاذة انفردت بتطورها عن تلازم اطوار الحياة العامة ان في هذا العصر يخضع الناس لعقلية مشتركة تقضي بأن يتساوى فيها بالحقوق والواجبات الرجل والمراة ، ان تشترك المرأة مع الرجل في تشييد الدولة ووضع قوانينها وانتخاب القوة المنفذة لهذه القوانين ، وان تساهم مع الرجل في العمل خارج منزلها بحيث تستقل عن ذويها بمواردها .

وكيف ترجع المرأة بعد ذلك فتخضع لارادة الرجل الخضوع الذي تقاوم به مجموعة ظروف الحياة المعاصرة ؟ لكن اذا كان السفور ينسجم مع عقلية العصر فهل يقره العقل ويستسيغه الوجدان انه لمن مقومات العقلية الحديثة ان يكون العلم الزاميا فيشمل البنين والبنات على السواء. واذا مارست البنت بحكم هذه العقلية الدراسة من الصبح الى المساء ومن سن الطفولة حتى نهاية التحصيل العالي ، وكانت هذه الدراسة تقوم على مبدأ ان العقل حكم في اقرار الحقيقة ، فكيف نحمل هذه البنت على ان تستثني ظاهرة الحجاب من لخضوع لارادتها . ومن ثم ماهي القيمة الاخلاقية للحشمة والعفة اذا كانت مفروضتين على الوجدان فرضا . الا يجرح هذا الفرض كبرياء المرأة ؟ اولا يدل على قلة الثقة

بوفائها كما يدل ايضاً على ضعف ثقة الرجل بنفسه بأن يكون كفؤاً لها .

. . .

سألتني احدى تلميذاتي يوماً عن مغزى القول الشائع بين الناس بأن المراة اسبق بالنضوج من الرجل : فأجبت على ذلك بأن العناية عهدت الى المرأة بامر ادامة الحياة فجهزتها بالرحمة كيما تقوم بهذه المهمة . وعهدت الى الرجل بامر تشييد المجتمع فجهزته بما يفي بهذا الغرض، ولما كانت الحياة تتقدم على المجتمع كان نضوج المرأة اسبق من نضوج الرجل .

وسئلت مرة اخرى عن مغزى القول المزعوم بان عقل المرأة نصف عقل الرجل فقلت : ان الرجل والمرأة يختلفان بالتكوين فالمرأة اكثر استعداداً لادراك الامور بالجملة، ذهنها اشبه بغزال يقفز ويلتفت بعد القفزة ؛ في حين ان الرجل اكثر استعداداً للتبسط ، مثله كمثل السلحفاة التي تمس طيات الارض مسا . لكن العبقري وسط بين المرأة والرجل : ذهنه خصب بالحدس كالمرأة ، وعزيمته ماضية كالرجل ، فينشىء الخيال فسيحا فيستجلي به مكنونات نفسه محولا اياها من حدس مبهم الى تحفة فنية ذات روعة . وبينما يبدع العبقري الاراء التي يقوم عليها صرح المجتمع

وتنجب المرأة البنين فتقوم بادامة الحياة ، يبقى العامي متطفلا على الاخرين يعيش على هامش الحياة ، شأنه في المجتمع كشأن الدبور الذي يقتات على مايجني النحل من عسل .

ولما سئلت عن السبب الذي يجعل العبقري متخلفاً عن الزواج قلت ان المرأة تؤثر بنيها على بعلها بينما يؤثر العبقري بنات نفسه ، الآيات ، على شريكته في الحياة . الا ان العبقري يعوض عن المرأة بخيالها في تحقيق الالهام غير ان المرأة لا تستغني عن الزوج في انجاب الاولاد .

وكيف هي ؟ قلت . وهل يتمثل الذهن اية الشمس صورة ذات معالم معينة ، كذلك هي : يغب الزهر الضوء كيما يعيد اليه بعد الغروب سبب النشوة ، وكذلك تتلألأ الذكريات في حياة من احب تلالؤ النجوم في سماء غابت عنها ذات البهاء .

. . .

الرسالة الرابعة

الامة والاسرة

الخطأ والصواب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٢	٩	كوبزيج	كوبرنيك
١٣	١٤	بتجارب	بتجاوب
١٦	١	نسفهم	نسغهم
١٦	١٣	الاعضاء	كتلازم الاعضاء
١٦	١٥	انسجام	بانسجام
١٨	١٣	فاعدته	قاعدته
٢٠	٤	الثافي	الثقافي
٢٠	١٧	كثرات	كترات
٣٠	١	أوصى	أوحى

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٣١	٦	تناوله	تناوله
٣٩	١١	في	هي
٤١	١	اهه	الهه
٤١	١٣	الى	أول
٤٢	٤	متحوت	منحوت
٤٢	٨	تسمو	تصبو
٤٢	١١	ببدو	يبدو
٤٤	٨	فتدو	فتبدو
٤٦	١	الاحتلاف	الاختلاف
٤٨	٩	ردأ	درأ
٥٠	١٣	يتحدى	فريق يتحدى
٥٣	١	رباء	عرباء
٦٣	١٠	صفارها	صغارها
٦٥	١	العافية	العامية
	١٤	الىالشيطان	والشيطان

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٦٨	١٢	غلط	غلظ
٧١	٧	غينهم	غيرهم
	٩	الاسواء	الاسوار
٧٤	٧	ويفاند	ويغاند
٧٦	١٣	الفاصات	الفاصاة
٨٥	١	الروح	الروم
	٢	وقعوا	دفعوا
٨٧	١٥	نشأدة	نشأة
٩٠	٦	نشوية	تشويه
	١٤	توفيقاً	توفيقاً
٩١	١١	أقام	أمام
	١٥	على	في
٩٣	٥	فتغير	فتعين
	١١	ذلك	ذاك الذي
	١٦	قلقت	قلقلت

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٠٠	١	تنطبق	تنطلق
١٠٥	٢	قد	ق
١٠٨	٨	يومي	قومى
١١٠	٤	الواجباب	الواجبات
١١١	٦	نشيد	تشيد
١١٢	٧	نستعن	تستغنى

. . .

دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر بسورية

تقدم الاستاذ

زكي الأرسوزي

في سلسلة

بعث الامة العربية

ورسالتها الى العالم العربي

الرسالة الاولى	التربية والثقافة
« الثانية	اللغة والفن
« الثالثة	الفلسفة والاخلاق
« الرابعة	الدولة والامة والاسرة
« الخامسة	التربية وتنظيم الحياة العامة
« السادسة	العرب والانسانية

COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES
0315333523

893.713
Ar99
v.4

APR 2 2 1964

893.713 - Ar99 v.4